



زهير بن أبي سلمى
حياته وشعره

إعداد
محمد يوسف فران

الاعلام من الاديان والشجر

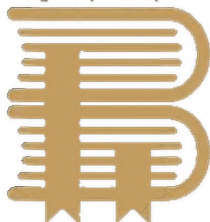
زهير بن أبي سلمى

حياته وشعره

إعداد
محمد يوسف فران

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان
مرف: ١١/٩٤٢٤، تلخس: ٤١٢٤٥ Le، Nasher
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

المقدمة

يضم هذا الكتاب بين دفتيه صورة تكاد تكون كاملة عن حياة رجل بات نسيجاً وحده في اكتمال النضج وصفاء الذهن وعلو الهمة وطول باع في رائق الشعر وجيده حيث اننا نستشف منه صوراً شيقة تساعدنا على وضع بصماتنا على العديد من ملامح الحياة العربية قبل الإسلام.

لقد قسمنا هذا الكتاب إلى ثلاثة فصول وخاتمة.

١- تحدثنا في هذا الفصل بإيجاز عن صفة شبه الجزيرة العربية التي كان لصعوبة العيش فيها أثر كبير على حياة العربي. كما تحدثنا عن طبيعة الحياة الاجتماعية والروحية والعلمية والسياسية وما كان لها من مؤثرات على شحذ همم الناس وهم يتحملون شظف العيش وقساوة الحياة في تلك الأرض الموحشة.

٢- وتحدثنا في هذا الفصل عن ولادة الشاعر وحياته الخاصة من خلال علاقته بقبيلته ومجتمعه القبلي والظروف التي ساعدته على إنماء موهبته الشعرية والأدبية حتى غدا علماً من أعلام الشعراء الكبار الذين استطاعوا أن يرسموا الطريق المعبدة السليمة للأجيال المتعاقبة التي حذت حذوهم في ترسم خطاهم واعتماد مناهجهم في سلامة اللفظ ومتانة العبارة وحسن الإيقاع. كما

تحدثنا في هذا الفصل عن ديوان زهير والاهتمام الذي لقيه حتى خرج للناس على الشكل الذي نراه . وكذلك لم يغفل أمر الذين اهتموا بهذا الديوان وما تضمنه من الشعر مع استعراض مقتضب للعديد من آراء المحدثين والقدماء فيه .

٣- في هذا الفصل تحدثنا عن الأغراض الشعرية التي وجدناها في شعر زهير بدءاً بالغزل والوقوف على الاطلال ووصف حركات الطاعنين على ناقة سريعة كبقرة الوحش حيناً وحيناً كالظليم وأحياناً كحمار الوحش وطوراً كالقطا ، كما لم يغفل أن يشبه فرسه بالصقر في سرعة طيرانه ، وانتهاء بالمديح والحكمة التي يضمنها شعره وهو يرصد بها تجاربه ومعاناته من صروف الدهر وتقلبات الأيام . عدا ذلك فقد أفردنا تحليلاً خاصاً للمعلقة لما لها من الأهمية الشعرية والتاريخية لما تحمله من طاقات اسلوبية تكاد تتميز بها عما قيل في العصر الجاهلي من شعر وخصوصاً فيما يتعلق بالمعاني الجديدة التي انفرد بها زهير عن غيره ممن عاصروه .

وأما في الخاتمة فقد تحدثنا عن خصائص شعر زهير العامة محددين الطريق التي سلكها في وضع صوره وهي تنبض بالحياة ، فمن سلامة اللفظة وعمق دلالتها ، إلى نقاء العبارة وخلوها من التعقيد ، إلى رقة الإيقاع في جمال موسيقاه ، إلى جمال الصورة وهي «تكاد أن تحفر في أذهاننا حفرأ» وذلك لما لزهير من براعة وحذاقة في إظهار فنه الخالد .

ولا يسعنا، بعد الانتهاء، إلا أن نحمد الله الذي قدرنا على
إنجاز هذا العمل المتواضع الذي نرجو من خلاله أن نكون قد وفينا
زهيراً بعض حقه علينا إذ لا كمال إلا لله سبحانه.

النبطية في ٢٠ / ١٢ / ١٩٨٨

محمد فران

صفة الجزيرة العربية

تقع شبه الجزيرة العربية في القسم الجنوبي الغربي من قارة آسيا. ويحدها بحر عُمان وخليج العرب من الشرق، والبحر الأحمر من الغرب، والعراق وبادية الشام من الشمال، والمحيط الهندي من الجنوب.

ولقد قسم جغرافيو العرب شبه الجزيرة العربية إلى خمس مناطق جغرافية:

١ - تهامة وهي المنطقة المحاذية للبحر الأحمر غرباً، وهي منطقة سهلية ضيقة تكاد تتسع في بعض المناطق إلى خمسين ميلاً عرضاً. وهي أرض رملية شديدة الحرارة.

٢ - منطقة الحجاز أو سلسلة جبال السراة حيث تكثر فيها الأودية البركانية والحرات (أرض رملية)، وتعلوها قمم رملية جرداء، ويتخلل هذه الأودية، في هذه المنطقة، آبار وعيون فيتولد عن ذلك خصب وحياة، كما هي الحال في المدينة المنورة، يثرب، وفي وادي القرى. ومن مدن هذا الوادي، كذلك قُرح التي كانت تقام فيها سوق عظيمة، إضافة إلى مدينتي خيبر وفدك. وكان ينزل في هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عُذرة وبَلِي وجهينة وقضاعة التي كانت عشائرها تمتد إلى شبه جزيرة سيناء.

٣ - نجد^(١) وهي هضبة واسعة تقع شرقي جبال الحجاز التي تفصلها عن تهامة. وتمتد هذه الهضبة شرقاً حتى تتصل بأرض العروض^(٢) ويسمي العرب الجزء المرتفع من نجد، مما يلي الحجاز، العالية أما الجزء المنخفض، مما يلي العراق، فيسمونه السافلة. وأما جزؤها الجنوبي المحاذي لليمامة فيسمونه الوشوم، والقسم الشمالي منها يسمونه القصيم أو أرض الغضا نسبة إلى النبات المعروف فسمي أهل نجد بأهل الغضا. وتمتد نجد شمالاً حتى تتصل ببادية النفود التي تزخر بكثبان الرمل الأحمر حيث تتخللها سهول فسيحة ولكن لا ماء فيها. وتمتد بادية النفود جنوباً شرقياً، بكثيب رملي عظيم، يفصل بين نجد والعروض، ويسمي الدهناء أو رملة عالج وهي منازل تميم وضبة في الجاهلية والإسلام. وإذا أكملت بادية النفود امتدادها إلى الربع الخالي جنوباً، أصبحت نجد محاطة، شمالاً وشرقاً وجنوباً، ببوادي وصحارى تعزلها عن العراق، من الشمال، وعن العروض، من الشرق، وعن الشَّحْر وعُمان ومَهْرَة وحضرموت من الجنوب وأما باديتا العراق والشام فلا تعتبران من هضبة نجد.

٤ - العروض أو اليمامة والبحرين، وهي أرض تمتد من البصرة في العراق، شمالاً، إلى عُمان اليوم جنوباً. وتكثر في هذا

(١) - الأرض المرتفعة.

(٢) - اليمامة والبحرين.

الإقليم المياه، وخاصة في الإحساء. وعُرف سكان هذا الحزام العظيم بصناعة الملاحه واستخراج اللآلئ.

٥ - اليمن - إذا اعتبرنا أن العروض هو الأرض الممتدة من الموصل إلى عمان، فإن اليمن هو القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية. وتقسم اليمن بدورها إلى الأقسام الطبيعية الثلاثة التالية:

أ - ساحل ضيق خصب يسمى تهامة اليمن.

ب - سلسلة جبال على موازاة ذلك الساحل، وهي في الحقيقة امتداد لسلسلة جبال السراة.

ج - وهضبة تمتد، شمالاً، إلى هضبة نجد وصحراء الربع الخالي. وفي هذه الهضبة أودية وسهول تزرع بفضل الأمطار الموسمية ولقد وصف القرآن الكريم هذه الهضبة إذ يقول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَانِ عَنْ يَمِينٍ وَعَنْ شَمَالٍ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٍ﴾.

أما مناخ شبه الجزيرة العربية فهو صحراوي موسمي شديد الحرارة غالباً. فقد تتناهب رياح السموم صيفاً فتلفح الوجوه وتشوي البشرة شيئاً وخصوصاً في هضبة نجد. وكذلك تهب عليها الرياح الشرقية اللطيفة التي تنعش النفوس بعد رياح السموم اللافحة، وتسمى رياح الصبا. إضافة إلى الرياح الشمالية القارصة التي قد تتحول إلى صقيع شديد البرودة.

وأما أمطار تلك الأصقاع فقليلة جداً، اللهم، إذا استثنينا القسم الجنوبي منها حيث تهطل أحياناً الأمطار الموسمية في الصيف والقسم الشمالي حيث تهطل الأمطار في الشتاء. وقد يحدث المطر سيولاً عارمة في اليمن وشمالي الحجاز. وأما في قلب شبه الجزيرة فيقل هطول المطر أو ينعدم، فسماء العرب غيثاً واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم». وقد ارتبطت حياة العربي في هذه الجزيرة بمواطن الغيث، لأن الأرض من دونه تصبح ياباً لا حياة فيها إذ ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ ومن أجل ذلك كانت القبائل العربية تترصد مواطن الغيث وتسعى جاهدة بالتنقل من مكان لآخر طلباً للكلأ والماء واستمراراً لإبقاء قطعانهم وتنميتها لأن في ذلك استمراراً لهم في بقائهم في الحياة.

أما نباتات الجزيرة العربية فكانت تتوافر على الساحل الشرقي وفي الجنوب وفي قرى الحجاز واليمامة. ففي اليمن مثلاً كانت تكثر أشجار اللبان والطيب والبخور. وفي الطائف كانت تكثر الكروم وخصوصاً كروم النخيل. ونلاحظ، بل والجدير بالذكر، أن، في الشعر العربي ذكراً كثيراً للعديد من الأزهار كالعرعار والحزامي، ومن الأشجار كالغضا والأثل والسدر والحنظل.

أما الحيوان، في شبه الجزيرة العربية، فقد أولاه العربي اهتمامات خاصة كانت تتمحور حول الخيل والإبل والأغنام والأوعال

والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش والأسد والضبع
والذئب والفهد، والنمر وعصائب الطيور على أنواعها من «الحدأة
والصقر والنسر والغراب والقطا والجراد والنحل والعقبان» وغير
ذلك كثير مما عاشه العربي في صحرائه وباديته. والشعر العربي لا
يكاد يخلو من ذكر مثل هذه الحيوانات كالجواد والناقة والذئب
والأسد والبقرة الوحشية والعَير وغير ذلك مما نراه كثيراً في الشعر
الجاهلي.

الحياة الاجتماعية في الجاهلية .

كان العرب قبل الإسلام بدواً وحضراً . فالبدو هم الذين كانوا يعيشون في البوادي ويتنقلون من مكان لآخر سعياً وراء الماء والعشب . والحضر ، هم في الأصل بدو ، تحولوا تدريجياً إلى أن يعيشوا حياة مستقرة عمادها الزراعة والتجارة والصناعة . وأنى للحياة أن تستقر ، إذ أن البدو كانوا في قتال واقتتال على منابت العشب ومواقع المياه وهم يتتبعون آثار الغيث ؛ والحضر قد انقسموا إلى مملكتين متنازعتين : المناذرة ، وهم عرب الحيرة ، في العراق وقد كانوا يشدون أزر الفُرس ، والغساسنة في الشام وقد كانوا يشدون أزر البيزنطيين . ودارت معارك طاحنة بين هاتين المملكتين كان من شأنها أن تنهك القوى وتفرق الناس بدلاً من أن يتجه أمراء تلك المملكتين للعمل ، إيجابياً على جمع الكلمة لتدعيم الاستقرار الذي كان ينبغي أن يسود . لذلك كنت ترى العرب في ذلك الوقت يتفرقون شذر مذر ، حيث لا شيء يجمع بينهم فرزحوا تحت شراسة الاقتتال الدامية بدواً وحضراً إلى أن جاء الإسلام وعمل على نشر العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس حقوقاً وواجبات .

فالحرب أهم ميزة من سمات الحياة العربية قبل الإسلام إذ أنها

كانت تقوم على أساس «من سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سنة من سننهم، فهم دائماً قاتلون ومقتولون... وأكبر قانون عندهم هو قانون الأخذ بالثأر، فهو شريعتهم المقدسة... إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يشاروا من غرمائهم، ولا يحق لأي واحد منهم أن يخرج على هذه الشريعة... فتتوارث الثارات وتستمر الحروب فتستضري الحياة وتقسو، ولا يمكن للفرج أن يحصل إلا بعد أن يتعهد ديات القتل رجل شهيم عالي المهمة قادر على العض على الجراح فتتلبس النفوس وبيتسم العمر حيث تبرز معاني النجدة والاستغاثة والاستجارة كما نلاحظ ذلك عند زهير بن أبي سلمى إذ يقول:

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم
طوال الرماح لا ضعاف ولا هزل

وإذا كانت حياة العربي قتالاً واقتتالاً على حد قول دريد بن الصمة إذ يقول:

يُغار علينا واترين فيُشتفى
بنا إن أصبنا أو نُغير على وثر
قَسَمْنَا بذاك الدهرَ شطرين بيننا
فما ينقضي إلا ونحن على شطر

فما هي الحال يا ترى للخلاص من ويلات الحروب وقساوة الحياة؟ وهذا التحرك الحياتي المعاشي، أساسه النظام القبلي

المنغلق؟ فالقبيلة أسرة كبيرة تشد أواصرها روابط متينة كالقراية
 الدموية أو الرحمة حيث تتولد عاطفتا العمومة والخزولة وتتوثق
 الصلات وتشتد فيما بين أفراد القبيلة والوحدة وتبرز عندهم نزعة
 التعالي على الغير فتتولد الأحقاد وتتوالى الحروب وتتالى أيام المعارك
 الدامية حتى تتواتر إلى أربعين سنة كما هي الحال في حربي البسوس
 وداحس والغبراء اللتين أشعلتا لأسباب تافهة . وكان سبب الحرب
 الأولى أن كُلياً سيد تغلب قد اعتدى على ناقة للبسوس كانت
 ترعى في حماه . والبسوس خالة جساس وجارته ، فشارت نائرة
 جساس ، وخالته تصب الزيت على النار فتزداد لهباً ، حتى وجد
 نفسه ، وهو سيد بني بكر ، مضطراً إلى أن يغتال كُلياً ، الأمر الذي
 أشعل نيران الحرب أعواماً تزيد على الأربعين ولم تنته إلا بعد أن
 تدخل المنذر والد عمرو بن هند واصلح الأمرين المتحاربين . وسبب
 الحرب الثانية أن سباقاً جرى ، على رهان ، بين داحس ، وهو
 جواد لسيد بني عبس ، وبين الغبراء ، وهي فرس لبني ذبيان .
 وعندما أوشك داحس على الفوز كمن له رجل من ذبيان وأعاق
 سيره فسبقت الغبراء وانتصر بنو ذبيان . فرفض سيد بني عبس أن
 يعترف بهذه النتيجة وطالب بقيمة الرهان المضروب فتعنت بنو
 ذبيان ونشبت الحرب عقوداً لم تنته إلا بتدخل سيدين من ذبيان هما
 الحارث بن عوف وهريم بن سنان وقد تحملا ديات القتلى .
 ومن مبررات هذه الحروب في الجاهلية أن العصبية القبلية
 المنغلقة تقضي أن يُدافع الفرد عن حياض قبيلته ، سواء أكانت

- تلك القبيلة - ظالمة أو مظلومة، والدفاع عن الجار شرط أساسي، وواجب على كل فرد في القبيلة الدفاع عنه، من هنا برزت واضحة مهمة الشعراء الجاهليين في توضيح هذه الميزة وإبرازها في مجالات مختلفة كالكرم والوفاء والنجدة وحماية الجار والاستغاثة والعفو عند المقدرة والأنفة وإياء الضيم والعفة .
ففي الكرم نرى حاتم الطائي يقول :

إذا ما بخيل الناس هرت كلابه

وشقُّ على الضيفِ الغريب عُقُورُها
فلإني جبانُ الكلبِ بيتي مُوطأ

أجودُ إذا ما النفسُ شحَّ ضميرُها
وفي العفة والكرم والشجاعة يقول عنترة مخاطباً عبلة :

يُجَبِّركَ من شهد السقيعة أني

أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنم
فلإذا شربتُ فلإني مستهلك

مالي وعرضي وافِرٌ لم يُكَلِّم
ولإذا صحتُ فما أقصرُ عن ندي

وكما علمت شمائلي وتكرمي

وفي النخوة والإقدام يقول عنترة عندما رأى فرسان قومه يتذاكرون ويتلکاون :

لما رأيت القومَ أقبل جمعهم

يتذاكرون كررتُ غيرَ مُذمَّم

والتأمل في الشعر الجاهلي يرى أن هذه الخصال الطيبة والصفات الحميدة مبثوثة في ثنايا ذلك الشعر الخالد الذي يتغنى بخلود تلك الصفات. ولكن الشاعر الجاهلي، وإنسان ذلك العصر عموماً لم يكونوا غَيْرَيْن في تطبيق أحكام تلك الصفات والمميزات وإنما كانوا فَرْدَيْن ذاتَيْن سواء من خلال الفرد في ارتباطه مع ذاته أو من خلال ارتباطه مع قبيلته.

وسادات القبائل فيما نرى أنهم يطبقون تلك الخصائص ويمثلونها خير تمثيل، على الرغم من إغراقهم في الذاتية، ومع ذلك يضيفون إليها صفات الحكمة والحنكة وحسن المشورة فأصبحوا مقاصد للناس في خلافاتهم ومن هؤلاء الذين تجاوزت شهرتهم حدود قبائلهم: أكثم بن صيفي، وعامر بن الظرب العدواني.

وهذا لا يعني أن هذه السمائل الإيجابية الحميدة لم يكن في الجاهلية ما يناقضها من الصفات السلبية السيئة كاستباحة الخمر والميسر والنساء ووَاد البنات والغدر. ولنقرأ من شعر طرفة بن العبد هذه الأبيات ولنعرف السبب الذي من أجله أفردته قبيلته أفراد البعير المطلي بالقار:

وما زال تشرابي الخمورَ ولذتي

وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلدي

إلى أن تحامثني العشيرة كُلُّها

وأفردتُ أفرادَ البعير المعْبُدِ

ولولا ثلاث هن من عيشة الفقى
 وَجَدَكَ لم أخفل متى قام عُوْدِي
 فمنهن سَبَقُ العاذلاتِ بِشْرِيةِ
 كُمَيْتِ متى ما تُغَلّ بِالماءِ تُزِيدِ
 وَكَرِي إِذا نَادَى الْمُضَافُ مُحَبًّا
 كسيد الغضا نيهته التَّوَرْدِ
 وتقصيرُ يومِ الدجنِ والدجنُ معجبُ
 بِتَهَكُّنَةٍ تحتَ الجناءِ المَعْمَدِ

لقد جاء في القرآن الكريم ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل
 فيها إثم كبير ومنافع للناس، وإثمها أكبر من نفعها﴾ وفي آية
 أخرى ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في
 الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم
 متبهون﴾. والخطاب في البداية موجه للجاهليين.

والقبيلة اجتماعياً ثلاث طبقات: أبناؤها الذين يربط بينهم
 النسب، وعبيدها المجلوبون شراءً أو سبياً، والموالي وهم عتقاؤها.
 والأمر كذلك بالنسبة للمرأة. فقد كانت النساء ثلاث طبقات:
 الشريقات والحُرّات والإماء فالشريقات لهن مكانة عالية في المجتمع
 القبلي. إذ كان لهن الحق في اختيار أزواجهن والابتعاد عنهم إذا لم
 يحسنوا معاملتهن. والحُرّات، جمع حُرّة، فكنّ يقمن بطهي
 الطعام وإصلاح الخباء ونسج الثياب. وأما الإماء فقد كن يخدمن

في بيوت الشريفات، ومنهن من ترعى الإبل، وبعضهن من
تشتغل في حانات الخمر، وكن في منزلة متدنية في المجتمع.

والعربي، بدوياً كان أم حضرياً، لا شيء يضره ويثيره مثل
قضية العرض؛ ويعتبر أن المرأة جزء لا يتجزأ من كيانه ويحرص
عليها كل الحرص وهي شريكته في سرائه وضرائه وحتى في حروبه
وفي ذلك يقول عمر بن كلثوم التغلبي:

على آثارنا بيضُ جِسانِ
نَحَاذِرُ أَنْ تُقْتَلَ أَوْ تُهَوَّنَا

فإذا كانت المرأة على هذه الأهمية عند الجاهلي فينبغي لها أن
تتمتع بخصال عامة تستهوي الرجل. وأهم هذه الخصال الجمال
المحل بالطيب والحلي والثياب الفاخرة إذ يقول امرؤ القيس:

وتضحى فتيتُ المسك فوق فراشها
نُؤومُ الضحى لم تتطلق عن تفضلِ

وكما يقول المنخل الشكري:

الكاعبُ الحسناءُ ترُ
فُلُ في الدَّمَقْسِ وفي الحريرِ

والشنفرى يعدد صفات حببته أُمَيِّمة: فهي مُقْنَعَة، تمشي
بَغْنَج ودلال ولا تتلف وراءها وهي كريمة لا تُذَمُّ أينما حلت كونها
عفيفة وجليلة. وإذا ما كلمتك فإنها تختصر لتتابع سيرها إلى غايتها
وزوجها فخورٌ بها لأنها عنوان فخره وعنفوانه.

فالمرأة عزيزة عند الجاهلي حرة فيما تريد أن تفعل شرط أن تبقى
مرفوعة الرأس كريمة النسب حتى لا تجلب العار إلى قبيلتها فلذلك
أبت الطبيعة الجاهلية على العربي أن يتغزل بالعداوى ولهذا كان
غزل امرئ القيس «فمثلك جبل قد تركت ومرضعاً» وقصة المنخل
مع المتجردة معروفة، وقول الأعشى «وقد أخالس رب البيت
غفلته» وهذا لا يعني أن التغزل كان مقصوراً على المتزوجات بل
كان أجراً عليهن.

الحياة الروحية في العصر الجاهلي .

إن الصفة الغالبة على عربي ما قبل الإسلام هي صفة التوحيد، ولكنه كان قليل الاحتفاء بالدين وبشئ أنواع العبادات ولا يلتفت إلى ذكر الله إلا إذا ألت به نازلة ضيق وكرب . وأما إذا زالت عنه مصيئته وانقشع كربه فإنه يعود إلى تماديه في عبثه ومجونه . على أن التوحيد لم يكن صفة ، عند بعض العرب بل كان مذهباً يُعملُ به ويُسمى إليه . وهناك مجموعة من عظماء ذلك الزمان ، اتصفت حياتهم بالجدية في ممارساتهم اليومية من خلال تذكيرهم بالحياة والموت وبأن على المرء أن يتزود للحياة الأخرى . وهؤلاء الناس قبل الإسلام هم الموحدون الحنفاء الذين كانوا يبنون الحياة الخاصة والعامة على أساس الأخلاق الكريمة ويعملون بأمر العقل فينفذون ما يأمر به وينهون عما ينهى عنه . ومن هؤلاء الأحناف : ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وخالد بن سنان العبسي وحنظلة بن صفوان ، وقس بن ساعدة الأيادي ، وعامر بن الظرب العدواني وزهير بن أبي سلمى ، وعبيد بن الأبرص وأمّية بن الصلت ، والنابعة الجعدي الذي يقال عنه انه أنكر الخمر في الجاهلية وهجر الأوثان والأزلام حيث يقول :

الحمد لله لا شريك له

من لم يقلها فنفسه ظلما

والحنيفية أو الدين الحنيف هو دين سيدنا النبي ابراهيم (ع)
الذي جاء «على فطرة الله التي فطر الناس عليها».

ونجد الصابئة إلى جانب الموحدين . وهؤلاء كانوا يعبدون
الكواكب ويعتقدون بالأنواء . وأول من دان من العرب بذلك
قبائل سبأ الحميرية إذ أنهم كانوا يعبدون الشمس ، وكانت كنانة
من عبدة القمر . أما بنو جرهم ولخم فقد كانوا يسجدون
للمشترى . وأما قريش فقد عبد أبناؤها الشُعْرَى بدليل بعض
أسمائهم في ذلك : عبد شمس .

أما اليهودية فهي دين موسى عليه السلام ، نسبة إلى يهوذا أحد
أسباط إسرائيل الذي تناسل منه أكثر ملوك تلك الطائفة . وتبع
الأصغر هو الذي أدخل اليهودية إلى اليمن . ومن اليهود الذين
نزلوا المدينة بنو قريظة وبنو النضير . ومن دان باليهودية من العرب
بنو غنم وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب . ولعل هذه الديانة سرت
إليهم عن طريق مجاورة اليهود في تيماء وثرثب وخيبر .

وأما النصرانية ، فهي دين المسيح ، عيسى بن مريم عليهما
السلام ، نسبة إلى الناصرة ، أول قرية بث فيها المسيح دعوته مبشراً
بدين الله . وقيل إن القديس لوقا أول من دعا إليها في بلاد اليمن
أثناء سيره إلى الهند ، وبولس الرسول أول من دعا إليها في الشام

وبَّره . وأشهر من تنصَّر من العرب بنو غسان وقضاعة وتنوخ
وتغلب وطىء وحير، إضافة إلى انتشار المسيحية في جهات شتى
بالحيرة في العراق، ومن هؤلاء في الحيرة عديّ بن زيد العبادي .

أما الوثنيون، فكانوا الأكثرية من العرب . فقد عبدوا الأوثان
زاعمين أنها تقربهم إلى الله رُفَى . ﴿لئن سألتهم من خلق
السموات والأرض ليقولنَّ: الله﴾ . ولقد قال الزغشري بلغ عدد
الأصنام حول الكعبة ثلثمائة وستين صنماً . والدلائل تشير إلى أن
الوثني على العموم لم يكن يتمسك في تدينه بعقيدة ثابتة نابعة من
شعور عميق، إنما هي عادات تأصلت في نفوسهم تقليداً لغيرهم
وتمسكاً بسلوك آبائهم ﴿إنا رأينا آباءنا على سُنَّةٍ وإنا على آثاريهم
سائرون﴾ .

علوم العرب ومعارفهم في العصر الجاهلي .

يؤكد التاريخ أن العرب الجنوبيين كانوا أهل حضارة وتقدم وذلك تبعاً لأنواع النشاطات اليومية التي كانوا يمارسونها في حياتهم . ولعل هذا التطور الحضاري لم يبق محصوراً في مدن اليمن بل امتد إلى واحات الحجاز فَأُنشِئَتْ فيه مدن كثيرة كيثرب وخيبر والطائف ووادي القرى حيث عمت فيها الزراعة . وقد نمت عند سكان هذه المدن خبرات مهمة كالاهتمام بأنواع البذار، واعتمدوا أنواعاً مختلفة في أنماط الري فأنشأوا السدود وحافظوا على مواقع المياه فأحسنوا تنظيمها . كما نمت عندهم الخبرات بإقامة البيوت والمنازل التي يستلزمها استقرار الناس حول مزارعهم ، فانتعشت الزراعة عندهم .

وقد اكتسب العربي، من خلال احتكاكه بالأمم المجاورة كالفرس والروم البيزنطيين، الكثير من معارف تلك الأمم التي كانت على جانب عظيم، بالنسبة لذلك الزمان، من التطور . وقد كان مرد هذا الاكتساب يعود إلى القوافل العربية التي كانت تنطلق من قلب الجزيرة العربية ، في رحلتي الشتاء والصيف، لتعود إليها وهي تحمل معها كل جديد من أنواع العلوم والمعارف كأن يأخذوا

عن الروم بعض فنون الحرب والقتال أو يعرفوا بعض أساطيرهم خصوصاً ما له شأن مهم في حياة العربي الذي أوشك أن ينفض عن نفسه غبار البداوة الفطري ليشهد العالم، آنذاك، الأشواط الحضارية التي سيندفع إليها ذلك البدوي، في ظل الإسلام وتعاليمه .

ولعل أهم العلوم عند العربي اهتمامه بالانساب والأيام لما لهذا الأمر من أهمية في حياته . وبلي ذلك في الأهمية عنده، علم النجوم، ومعرفة بمطالعها وأنوائها وأمطارها خصوصاً وأن هذه النجوم رفيقة العربي في سراه ^(١) حيث يهتدي بها في إرشاده إلى مبتغاه الذي لا يضل بعده أبداً . أما اهتمام العربي بالطب فهو لم يقل عن اهتمامه بالانساب والنجوم . وقد عرف في ذلك التجربة الحسية واعتمد عليها كالكي بالنار واستخدام بعض العقاقير النباتية . وقد كانوا يتداوون بالعزائم والرقى .

وأما أهم ما أثر عن العربي من علوم، علم الفراسة الذي اكتسبه من خلال معاناته مع تحديات الحياة وقساوتها في ظل ضراوة الصحراء وشراسة طبيعتها، الأمر الذي جعل الإنسان يستلهم عملية الاستدلال بأشياء ظاهرة عن أمور خفية كالقدرة على التمييز بين مشية كل من الشيخ والشاب، والرجل والمرأة والأعمى والبصير، أو كأن يعرف البعير من البعرة .

(١) - السرى: السير ليلاً.

ولقد اهتم العربي اهتماماً خاصاً بالسلاح ، كالقسي والرمح
والسهام والدروع والبيض ، وبحركات الكر والفر والطنن
والضرب والاعتناق ، حتى أصبح به خبيراً . وشعر الحرب عند
الشاعر الجاهلي خير دليل على ما بلغوه في هذه الناحية مما يدل على
حسن التدبير في أمر هذا السلاح واستخدامه في الظروف الصعبة
إذ أن حياتهم مليئة بالاستنفارات الدائمة فهم إما مستعدون لغزو
أو مستنفرون ضده ، فمن هنا كانت علاقة العربي بسلاحه علاقة
صدقة حميمة لا يمكن الاستغناء عنها .

وبما أن الأرض العربية محاطة بالبحار فكان العربي مضطراً
إلى ركوب البحر عبر السفن والاتجار بواسطتها مع الهند
والحبشة ، مما يدل على أنه كان على شيء من علم الملاحة
وهذا ما يؤكد عمرو بن كلثوم بقوله :
ملأنا البر حتى ضاق عنا

وعرض البحر غملاًه سفينا

أما علم الخط والكتابة فلم يكون ليتشرب بين العرب . وإغما كان
موجوداً فيهم ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « كان في دولة
التبابعة ، وهو المسمى بالخط الحُميري . وانتقل منها إلى الحيرة ،
ومنها لقنه أهل الطائف إلى قريش » .

وأما الأمثال والحكم فقد اكتسبها العربي من عراكه الدائم مع
كل ما يمكن أن يعترضه في حياته بدءاً من نفسه إلى كل ما في

الطبيعة من مؤثرات ومثيرات . والمكتبة العربية غنية جداً بالكتب التي تؤكد اهتمام العربي بالأمثال . ومن أهم هذه الكتب : «جمهرة الأمثال» للعسكري و«مجمع الأمثال» للميداني . وأهم من اشتهر بالأمثال من العرب أكثم بن صيفي ومن أقواله : مَقْتَل الرجل بين فكيه . وعامر بن الظرب ومن أقواله : رب زارع لنفسه حاصد سواه . ومن الأمثال في الشعر قول طرفة :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهرُ ينفد

وأقوال الأفوه الأودي وليبد بن ربيعة وعبيد بن الأبرص وزهير بن أبي سلمى خير شاهد على ما نقول .

وأما الخواطر في الحياة والموت فقد أولاها العربي جل اهتمامه حيث انه وضع فيها زبدة تجاربه وخلاصة حياته في صراعه مع تقلبات الدهر وتحديات صروفه التي لا أمان لها وبهذا يقول زهير :

يا دهر قد أكثرت فجعتنا
بسرائنا ووقرت في العظم
وسلبتنا ما لست معقبنا
يا دهر ما أنصفت في الحكم

الحياة السياسية في العصر الجاهلي .

أجمع المؤرخون على أن نظام الحكم في اليمن كان ملكياً مطلقاً . ومن أشهر ملوكها، ملكة سبأ بلقيس الحميرية، صاحبة القصة المشهورة مع النبي سليمان الحكيم (ع) . وأما المدن والقرى المنتشرة في شبه الجزيرة العربية فلم يكن نظام الحكم فيها كما كان في اليمن، بل كان يختلف في كل منها عن الأخرى . وفي ذلك يقول الدكتور جواد علي في كتابه: تاريخ العرب قبل الإسلام: «ويلاحظ أن بعض المدن والقرى ولا سيما في العربية الغربية مثل مكة لم يكن عليها ملك إنما كان يحكمها عدة رجال . . . ولا يُلقَّب زعيمهم والمتنفذ فيهم بلقب ملك . «وللملأ» وهم أصحاب الحل والعقد . . . ومقر حكمهم عرف بدار الندوة في مكة، وبالمزود عند أهل اليمن . وأن نظام الحكم في أمثال هذه المدن هو ما يقال له حكومات المدن عند المؤرخين الغربيين» . أما «يثرب المدينة، حيث تنازع السلطان فيها الأوس والخزرج فقد أراد كل فريق منها أن يكون الحكم من رجاله، وبعد جدل استقروا على أن يكون الحكم بينهما مناوبة، يحكم في كل عام زعيم من زعماء الحي الواحد، يليه في العام الثاني زعيم من الحي الثاني» . ولكن بعض المدن كان يحكمها مشايخ يسمون أنفسهم بالملوك ولكنهم لم يكونوا أكثر من

مشايخ مقاطعات . وأما في العراق والشام حيث الخصب وموارد الرزق واعتدال المناخ، فقد كان فيها ملوك، ويبدو أن شكل الحكم فيها ملكياً استبدادياً مطلقاً.

أما البدو فكان النظام القبلي هو السائد بينهم . ولم يكن هناك حكومة مركزية مطلقة ترعى مصالح الناس بآجمعهم وتنفذ القانون على الجميع، إنما كانت كل قبيلة بمثابة دولة مستقلة، لها كيائها الخاص، وشعبها يتكون من أفرادها فقط، ولها وطنها الذي تحافظ عليه ويسمى « الحمى ». وكان أفراد القبيلة الواحدة متضامنين متعاونين ويدرّون بالطاعة لرئيس القبيلة، وهو شيخها، الذي تُجمعُ القبيلة كلها على اختياره، وتكون رئاسته، للقبيلة، رئاسة عصبية لا شعبية، وحرّيتهم كانت فردية لا إجتماعية، والتزام الفرد بحقوق الجماعة والتزام الجماعة بحقوق الفرد كان مصدره تلك العصبية القبلية. ومن هنا كان المبدأ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» ومن نفس المنطلق كان الاهتمام بالانساب والاعتداد بها والتعالي على الغيروف في ذلك يقول عمرو ابن كلثوم:

ونشربُ إنْ وردنا الماء صفواً
ويشربُ غيرُنَا كدراً وطيناً.

ومن الواجب أن يكون أفراد القبيلة كثيرين ولذلك قيل: «وللكثرة الرعب» . ومن أجل هذا الأمر كانت تنشأ الأحلاف إذ أن حياة القبائل العربية فيما بينها كانت أشبه بحياة شريعة الغاب «ومن لا يظلم الناس يظلم» على حد تعبير زهير بن أبي سلمى .

ويذهب بلاشير إلى القول: «كان العربي في النظام القبلي يتأرجح بين قطبين: فردية تدفعه إلى رفع كل ضغط وتثبيت الحقوق الدائمة لنفسه تجاه الحقوق الجماعية، وتعلق، من ناحية أخرى، بجماعته بصورة عميقة قد تصل إلى حد التضحية بالنفس» والقبيلة بدورها مسؤولة عن الدفاع عن حقوق أفرادها وحمايتهم، وأما إذا خرج أحدهم على طاعة القبيل فيطردونه ويتبرأون منه أمام القبائل وفي ذلك يقول طرفة:

إلى أن نحامتي العشيرة كُلُّها

وأُفردتُ إفرادَ البعير المعبد
أما رئيس القبيلة، أو شيخها، فينبغي أن تتحقق فيه صفات الوقار والهيبة والغنى وسداد الرأي وبُعد النظر والطموح والحزم والإيثار والتضحية والجود والشجاعة والحلم والصبر والرزانة والنبات، وقد أحكمته التجارب بالحنكة والدهاء، حتى بات زعماء القبائل «بحكمتهم تقرر الأمور، ورب كلمة من زعيم، أو هفوة تصدر منه تثير حرباً وتسبب كارثة له ولقبيلته أو للحلف الذي يتزعمه ذلك أن أعصاب رجال البادية مرهفة حساسة تثيرها الكلمات ولا سيما إذا كانت تتعلق بالشرف والجاه».

أما الشعراء في العصر الجاهلي فكانوا ألسنة قبائلهم يذودون عن حمى القبيلة بأشعارهم كما يذود الفرسان عن دمار ذلك الحمى بسيفهم ورماحهم، فتذاع الأخبار وتسجل الأمجاد في تراث خالد.

أما إثارة العصبية القبلية الضيقة فهي التي جعلت المجتمع العربي ، قبل الإسلام ، مفككاً ، فانعدم الأمن والاستقرار وعم القلق واستضرت العداوة حتى بين أفراد القبيلة الواحدة أو في بطونها المتعددة كما حدث في حرب داحس والغبراء ، بين بني عبس وذبيان وهم جميعاً من غطفان .

زهير بن أبي سلمى

(٥٢٠ - ٦١٠) هـ

هو زهير بن أبي سلمى، ربيعة بن رباح المزني، نسبة إلى مزيّنة، بنت كعب بن ربوة، وأم عمرو بن أدّ، إحدى جدات ربيعة لأبيه. ونُسِبَتْ قبيلة زهير إلى هذه الجدة وسميت باسمها. وكانت تربط قبيلة مزيّنة علاقات جوار ببني عبد الله بن غطفان الذين كانوا يتزلون في الحاجر، جنوب الرياض اليوم، من أرض نجد وتحديدًا شرقي المدينة المنورة حيث كان يتزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوال أبي سلمى، ربيعة بن رباح. ولكن أبا سلمى لم يلبث أن انصرف عن أخواله الذين لم يعطوه نصيبًا من الغنائم التي أصابوها من قبيلة طيء لأنه كان شريكاً لهم في الغزو فهو شريك في الغنائم، وانطلق بأمه إلى قبيلته مزيّنة واستوطن في الحاجر، في منازل بني مرة وبني غطفان، ثم ما لبث ربيعة أن أغار على أخواله مع نفر من الناس ولكنهم نفروا عنه وتركوه وحده حتى ألم به أخواله وبقي عندهم إلى أن توفي وهو في ريعان الشباب، تاركاً وراءه، في الحاجر، أمه وزوجته، التي كانت حاملاً وابنتيه سلمى والخنساء. ثم لم تلبث أم سلمى أن وضعت

طفلاً أسموه زهيراً. وولادة زهير في الحاجر، ديار بني غطفان،
أشكلت الأمر على الرواة وظنوا أن زهيراً هو غطفاني النسب
والحقيقة أنه غطفاني النشأة مُزَنِّي النسب بدليل قول ابنه كعب بن
زهير بن أبي سلمى في الغطفانيين :

هم الأصل مني حيث كنتُ ولانني .
من المزيين المصفين بالكرم

وبعد وفاة ربيعة بن رباح، أبي سلمى، تزوجت أم زهير من
أوس بن حجر فكفل زهيراً خاله بُشَامَةُ بن الغدير كما كفل أخته
سُلمى والخنساء. والخنساء هي غير الشاعرة المعروفة. وأما سُلمى
بضم السين هي أخت زهير وابنة ربيعة وكل ما أتى بهذا الإسم فهو
بفتح هذه السين الأولى منه .

وما أن تفتحت عينا زهير لتبصر النور سنة ٥٢٠ م تقريباً حتى
ملتا صليل السيوف وقعقة السلاح وضجيج الفرسان في تأهبهم
واستنفارهم، في حرب ليس لها نهاية، حرب داحس والغبراء،
فاكتسب زهير من جراء هذه الحرب، حنكة ودراية وتمرساً بشتى
ضروب الحياة. كيف لا والناس حوله في حل وترحال، وكروفر
وتوارث ثارات وتجدد أحقاد حتى باتوا في قلق مستمر وخوف لا
ينقطع. وإضافة إلى أيام داحس والغبراء، التي دامت قرناً، فقد
كانت تنشب حروب جانبية تستغلها القبائل المجاورة طمعاً بإنهاك

عبس وذبيان وسلب خيراتها. فمن ذلك ما ذكره المفضل الضبي ، صاحب كتاب المفضليات ، من أن بشامة بن الغدير ، خال زهير ، قد ترك قصيدتين يخاطب فيها قومه ويحرضهم على أن لا يخذلوا حلفاءهم «الحرقة» ضد بني سعد بن ذبيان . فالحياة ، في أيام زهير ، كما قلنا قبل قليل ، قلق مستمر وخوف لا ينقطع . . . خوف من الغزو وما قد ينتج عنه من ويلات الحرب ، قتلاً وسيئاً وسلباً ، وقلق على السعي وراء الكلا والماء لتأمين مادة الحياة الأولى لتساعد العربي ومواشيه على البقاء .

لم تذكر كتب تاريخ الأدب القديمة ، والدراسات الحديثة ، شيئاً يذكر عن نشأة زهير الأولى أكثر من أنه عاش في «منازل بني عبد الله ابن غطفان وأخواله من بني مرة من الذيبانيين» وفي كنف خاله بشامة بن الغدير الذي كان شاعراً مجيداً وسيداً شريفاً ثرياً وفي ذلك يقول ابن سلام الجمحي : «وكان [بشامة] كثير المال وكان ممن فقاً عين بعير في الجاهلية ، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقاً عين فحلها» . وعندما حانت المنية إلى بشامة جمع أفراد عشيرته وزهيراً ، ووزع عليهم تركته قائلاً لزهير : لقد أعطيتك ما هو أئمن من المال . فقال زهير : ما هو؟ قال شعري ! وكان بشامة يمتلك ما هو أهم من الشعر! ألا وهو مكارم الأخلاق التي رضعها زهير مع لبان الطفولة وهو في كنف خاله وشب عليها حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من نفسه الأبية وأريجته العظيمة .

إضافة إلى ما ورثه زهير عن خاله بشامة من جاه وأخلاق

وشاعرية، فقد عاش زواج أمه، أوس بن حَجَر، الشاعر المعروف الذي كان أستاذاً للعديد من الشعراء في أيامه، كالنابغة الذبياني مثلاً؛ ولقد أولى أوسُ زهيراً عناية خاصة لأنه توسَّم فيه علائم النباهة والفظانة والذكاء، وجعله راويته فاستفاد زهير من ذلك الشيء الكثير، إذ أن بصمات أوس على كل لفظة من لفظات زهير الشعرية الجميلة.

ولقد تزوج زهير من امرأة كريمة الخلق اسمها ليلي وكنيتها أم أوفى. وقد رزق منها زهير أولاداً ماتوا صغاراً. ولكن حب زهير للذرية جعله يتزوج كبشة بنت عمار بن سحيم أحد بني عبد الله ابن غطفان فولدت له كعباً وبحيراً وسالمًا الذي لم يلبث أن مات، في حياة أبيه، وهو بعد في ريعان الصبا، فرثاه زهير بهذه الأبيات:

رَأَتْ رَجُلًا لَاقَى مِنَ الْعِيشِ غِبْطَةً
وَأَخْطَأَتْ فِيهَا الْأُمُورَ الْعِظَائِمُ
وَسَبَّ لَه فِيهَا بَنُونَ وَتُوبِعَتْ
سَلَامَةً أَعْوَامَ لَه وَغَنَائِمَ
فَبَأْصَحَ عَجُورًا يُنْظَرُ حَوْلَهُ
تَغْبِطُهُ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ دَائِمَ
وَعِنْدِي مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ
فَقُلْتُ تَعْلَمُ إِنَّمَا أَنْتَ حَالِمُ

لعلك يوماً أن تُرَاعَ بفاجع
كما راعني يومَ التَّاءِ سالم^(١).

وكانت كبشة، زوجته الجديدة، ضعيفة الرأي، مبذرة، صلفة، فلقي منها زهيراً عتاً شديداً. فأحب، وبعد عشرين سنة، أن يعود إلى أم أوفى، لنبل في أخلاقها وحسن معشرها، ولكنها رفضت لأنه أثر غيرها عليها.

ولو تتبعنا شعر زهير، في ديوانه، لوجدنا أنه يتحدث فيه عن حرب داحس والغبراء، وهو يشيد بهرم بن سنان والحارث بن عوف لأنها تحملا ديات القتلى بين المتقاتلين، إذ بلغت ثلاثة آلاف بعير أدياها في ثلاث سنين. ولقد أثر موقف هذين السنين الكريمين في نفس زهير فوضع فيهما جُلَّ شعره، وخصوصاً في مدح هرم، وهو يمدحه طيلة حياته دون كذب أو تملق، لأنه لا شيء، عند زهير، أسمى من أن تخلص نفساً بريئة من برائن الحرب القبلية العصبية الغاشمة. ويظهر في معلقته، وفي غيرها من مطولاته، صدى هذه المنة العظيمة إذ يمجّد هرماً ما بعده تمجيد وهرم يُغَيِّقُ عليه من عطايا السخية. ومن طريف ما يُروى أن هرماً وحلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه: عبداً أو وليدة أو فرساً، فاستحيا زهير مما كان يُقبل منه، فكان إذا رآه في ملا قال: عموا صباحاً، غير هرم

(١) - راعه: أخافه. أفرعه.

وخيركم استثنيت». ولقد مدح زهير حصن بن حذيفة سيد بني فزارة لانتصاره مع أحلاف بني أسد على النعمان الغساني وهزمه هزيمة شنعاء. ولقد هدّد زهير كذلك الحارث بن ورقاء الأسدي بهجاء مقذع إذا لم يُعَدّ له غلامه يساراً، أخذه أثناء غزوته لمُزَيْنَة، عشيرة زهير، فاستجاب الحارث لتهديد زهير وأعاد إليه أمواله وغلامه يساراً بعد أن كساه وأحسن معاملته، الأمر الذي جعل زهيراً يمدح الحارث بدلاً من إقذاع الهجاء فيه.

أما إيمان زهير ومعتقده، فيعتبر الرواة أنه «كان يتأله ويتعفف في شعره» مما يدل على إيمانه بالبعث وفي ذلك قوله:

فلا تَكْتُمَنَّ الله ما في نُفُوسِكُمْ
لِيُخْفِيَ ومهما يُكْتَمُ الله يَعْلَمُ
يُؤَخِّرُ فَيُودِعُ في كتابٍ فَيُدْخِرُ
ليوم الحسابِ أو يُعَجِّلُ فَيُنْقِمُ

إن الروح الأصلية التي سبرت جميع سبل الحياة لا يمكنها إلا أن تجد الحقيقة ناصعة واضحة خصوصاً فيما يتعلق بخلق السماوات والأرض وبأن الله لم يخلق الإنسان إلا ليدوع فيه إحساساً داخلياً تعتمل فيه روح العمل الخالص ويكون الأمر كله لله. وإذا صحت نسبة البيتين السابقين إلى زهير فيمكن اعتباره واحداً من أولئك الأحناف الذين اعتبروا أن النبي إبراهيم (ع) أوّل من دعا إلى عبادة الله الواحد، وأن على الإنسان أن يُعَدّ العدة في

الحياة الدنيا، تُقَى وورعاً، حتى ينال الحياة السعيدة الهائلة في جنة عرضها السماوات والأرض في الآخرة.

ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا قط، أن العديد من الرواة والنقاد يعتبرون أن زهيراً كان على دين أجداده الوثنيين. وأما ما في شعره من معاني التوحيد فهي مجرد خواطر اكتسبته إياها تجاربه الحياتية. وأما ما ينسب إلى زهير، من الشعر الديني فلم يُقَلَّ عن لسانه إلا لأن زهيراً عُرِفَ بالحكمة التي تلائم أذواق البدوين، وبالأمثال التي تنسجم مع طبيعتهم. والأصمعي، من القدماء، وهو الثبت الثقة، ينكر على زهير ما ينسب إليه من المعاني التوحيدية. وطه حسين من المعاصرين يضم صوته إلى الأصمعي في إنكار تلك المعاني إلى زهير في شعره.

أما حياة زهير الأدبية فغنية جداً من جهتين. الجهة الأولى وسطه الاجتماعي إذ أن أباه ربيعة بن رباح كان شاعراً، وكذلك كان خاله بشامة بن الغدير وأخته سلمى والخنساء وزوج أمه، أوس بن حجر، والذين انصرف إلى مدحهم وأفنى معهم عمره كانوا كذلك شعراء عظماء.

وأما الجهة الثانية فهي شعره الذي انصرف إليه وهو في سن مبكرة، الشعر الذي أعطاه من نفسه كل اهتمامه حتى فاق في ذلك أبناء زمانه واقرن اسمه بأسماء شعراء عصره الكبار أمثال امرئ القيس والنابغة الذبياني وطرفة بن العبد. . . ولما أحس زهير أن

ملكة الشعر قد اكتملت، وأن موهبته فيه قد نضجت ، وأن أحاسيسه قد رقت وترهفت، وأن قدرته على الإحاطة بلغة العرب وفنون الشعر قد انصقلت، انصرف بعد ذلك كله إلى قول الشعر فحلّق وغنى معه كل من يطرب بالغناء الجميل الموقع . ثم مالبت، بعد أن تأصلت في نفسه موهبة الشعر واكتملت أدواتها، أن انصرف إلى ولديه كعب وبجير يدرّبهما على صقل موهبتهما الفذة . . . فكان الشعر في بيته طبيعة وعادة وسليقة حتى توارث الشعر من بعده ابناؤه وأحفاده وأحفاد احفاده . . . فانظر معي إلى هذا التسلسل النسبي في خمسة من الشعراء الموهوبين : العوّام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى . . . أولا ترى معي أن أحفاد ربيعة بن رباح قد توارثوا الشعر أبا عن جد؟ فهذا وإن دل على شيء فإنما يدل على الاهتمام العائلي بهذا الجوّ الشعري الجميل . ولم يقتصر اهتمام زهير على أبنائه وحدهم، في التدريب على قول الشعر، بل تجاوزهم إلى غيرهم ونخص منهم أشهرهم على الإطلاق ألا وهو الخطيئة، جرّول، الذي كان تلميذاً لزهير وخريجاً عليه وراوية له، كما كان زهير قبل ذلك راوية لأوس بن حجر وخريجاً وتلميذه .

«وفي أخبار زهير مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التي كان يخرج بها الشعراء . . . فقد كان يلقنهم شعره، ويروونه عنه حتى تنطبع في أنفسهم طريقة صوغ الشعر ونظمه، وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم بما يلقي عليهم من أبيات، ويطلب إليهم أن

يميزوها بنظم بيت على غرار البيت الذي ينشده في الوزن والقافية».

وإذا كان الحطيئة قد أخذ عن زهير وتلمذ عليه، فإن جميل ابن معمر قد أخذ عن الحطيئة، وكثير عزه قد أخذ عن جميل
فلسلة الشعر متصلة بزهير من جهة النسب أو من جهة التعلم والرواية.

ولقد كان زهير أثيراً^(١) عند أهل البادية والحجاز لأنه يمثل ذوقهم في الشعر من خلال تصوير جو البادية أصلى تصوير. وتلاميذه، إضافة إلى أحفاده، لم يخرجوا عن هذا الاهتمام لأن نتاجهم الشعري، على اختلاف مضامينه ومناهجه لم يخرج عن خط الأستاذ الأول زهير لتطويرة خط أوس بن حجر.

ولقد عُمِّرَ زهير طويلاً حيث انه ناهز التسعين من الأعوام وتوفي قبل مبعث الرسول الأعظم محمد ﷺ، وقبل عام ٦١٠ هـ. فهو هنا لم يدرك الإسلام والذي أدركه فعلاً ابنه، كعب وبجير، وحسن إسلامهما.

(١) - أثيراً: مفضلاً.

ديوان زهير بن أبي سلمى .

لقي ديوان زهير، من الاهتمام، ما لقيته دواوين غيره من الشعراء المبرزين في العصر الجاهلي أمثال امرئ القيس والنابغة الذبياني وطرفة بن العبد والحارث بن جُلْزة وعمر بن كلثوم وعبيد ابن الأبرص وعنترة بن شداد وغيرهم .

وكانت طبعة ألْوَارد (Ahlwards) أول طبعة لديوان زهير إذ نشره في مجموعة «العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين وهم : امرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة . ولقد استخرج الوارد هذه الدواوين من شرح الشتمري الذي اعتمد فيها على رواية الأصمعي لشعر أولئك الشعراء، ثم ما لبث، الوارد، أن جردها من الشرح، وقد أضاف إليها ما وجده في كتب الأدب والتاريخ من الزيادات ونشرها سنة ١٨٧٠ .

وأما لندبرغ السويدي فقد نشر ديوان زهير وبشرح الشتمري سنة ١٨٨٩ في سلسلة «طرفا العربية» وترتيب الديوان فيها الطرفة الثانية . كما طبع الديوان في مصر عدة طبعت تعتمد كلها على

طبعة لندبرغ. كما نشره، كذلك، مصطفى السقا في مجموعته
«مختار الشعر الجاهلي» التي اعتمد فيها على شرح الشتمري، وقد
أضاف إليها مختصراً لذلك الشرح.

أما الأعلام البطلوسي فقد نشر تلك الدواوين الستة والتقى في
شرحها مع الشتمري و«كأنه هو الآخر عني في عمله برواية
الأصمعي البصري».

ولكن المهتمين بالشعر والأدب رأوا أن يعودوا إلى رواية ثعلب
الكوفي الموجودة بدار الكتب المصرية، مستعينين بنسخة تملكها
مكتبة الجمعية الألمانية الشرقية، وظهر ديوان زهير بهذه الرواية سنة
١٩٤٤.

فنحن الآن أمام روايتين لديوان زهير: الأولى رواية الأصمعي
البصري المشهود له بالصدق والأمانة والنزاهة في التحقق من كل ما
يعرض عليه من شعر حتى يتأكد من صحة ما يصله فيدونه في
مكانه. والرواية الثانية هي رواية ثعلب الذي كان يعتمد، في
تدوينه للشعر، على رواية حماد الراوية المشهود له بكثرة الوضع،
وعلى رواية ابن الكلبي الذي كان كصاحبه حماد فاعتمدت الثقة بهما
وبرواية ثعلب لشعر زهير، الأمر الذي يدفعنا إلى عدم الاعتماد
على هذه الرواية لدراسة شعر الرجل. وإنما يقتصر تركيزنا، في
هذه الدراسة، على رواية الأصمعي لأنه استقاها من حفيد زهير:

العوام بن عقبة بن كعب بن زهير، لنزوله البصرة وقد روى فيها شعر آبائه وأجداده فيشهد بذلك شاهد من أهله وتكون رواية الأصمعي هي التي تتمتع عند النقاد بالثقة المطلقة.

ولشدة تشدد الأصمعي في التحقيق في روايته نجد أن الشتمري ينقل عنه أنه «كان ينكر ثلاثاً منها هي: «أبلغ بني نوفل عني وقد بلغوا» و«أبلغ لديك بني الصيداء كلهم» و«ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى» وأنكر أبو عبيدة مقطوعته «إن الرزية لا رزية مثلها» ويقول أنها لقراد بن حنش من شعراء غطفان. ولا يبقى لزهير بعد ذلك من رواية الأصمعي سوى أربع عشرة قصيدة ومقطوعة تضاف إليها القصيدة التي رواها المفضل الضبي واحتفظ بها الشتمري وهي: «غشيت دياراً بالبقيع وثهمد» على أنه ينبغي أن نسقط من قصيدته «لمن الديار بقنة الحجر» الأبيات الأولى لأن حماد الراوية قد زادها. كما يشك الأصمعي كذلك في الحكم الملحقة بالمعلقة وقال: إنها لصرمة بن أبي أنس الأنصاري. ويمكن أن يكون لزهير طائفة منها اختلطت على الرواة بطائفة أخرى تماثلها نظمها صرمة».

فرواية الأصمعي لشعر زهير لم تزد على ثمان عشرة قصيدة ومقطوعة ينهبها الشتمري بقوله «كل جميع ما رواه الأصمعي من شعر زهير» وقد ألمحنا أعلاه أن الأصمعي نفسه شك بثلاث قصائد منها، وقد ذكرنا صدور مطالعها؛ وأما رواية ثعلب فإنها تنسب إلى

زهير عشرات القصائد والمقطوعات برواية حماد وابن الكلبي
المعروفين بكثرة الوضع .

فالثقة إذن برواية الأصمعي كبيرة وهي التي تدفعنا إلى الأخذ
بها كأساس لدراسة شعر زهير وذلك لأن هذا الشعر متوارث بين
أحفاد زهير إذ نقله العوام إلى البصرة ونشره فيها .

الشعر عند زهير

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنة زهير: وما فعلت حُلَّ هرم بن سنان التي كساها أبوك؟ قالت: لقد أبلاها الدهر! قال: لكن ما كساه أبوك هَرماً لم يُبْلِه الدهر.

إذا كان شعر زهير قد خُلِدَ على الأيام ولم يستطع الدهر أن يبليه ويفنيه، كما أبلى الحلل التي كساه بها هَرَمٌ، فذلك يعود إلى ما في نفس زهير من العبقرية الفذة في فن الشعر من ناحية، وإلى ما يحمله هذا الشعر من صدق وشفافية من ناحية ثانية.

فعبقرية زهير الشعرية من خلال شعره تتحدد في إمكانية استلهامه المنهج المستقيم الواضح الذي تتلمذ فيه على كل من أوس بن حجر، زوج أمه، الذي أولاه عناية خاصة به وجعله راويته، وعلى روايته شعر طُفَيْلِ الغنوي المعروف ببراعته في وصف الخيل والصيد، وعلى روايته كذلك لشعر خاله، بشامة بن الغدير الذي تعهد زهيراً، تربية ورعاية إلى أن أصبح واحداً من أعلام الشعر المعدودين في ذلك العصر.

ولم تقتصر تلمذة زهير على رواية شعر هؤلاء الفطاحل، وعلى إرشاداتهم القويمة له في فن الشعر وحسب، بل تجاوزها إلى كل ما

كان يدور على ألسنة الناس في الجاهلية من شعر، إذ أن الشعر قديماً كان ديوان العرب الذي يستأنسون به . . . وما أن يُنظَم بيتٌ من الشعر أو قصيدة جيدة حتى تشيع وتصبح في قليل من الوقت على كل شفة ولسان.

وأما اصدق الذي يحمله شعره فيمكن تحديده واستخلاصه من خلال استعراض الأغراض الشعرية التي تناولها هذا الشعر نفسه.

وزهير ابن بيته . ولم نر أنه قد تخلف عن الاحتفاء بكل ما كان يدور فيها من تحركات تفرضها طبيعة الحياة البدوية في الصحارى الواسعة والبادي المترامية .

ولعل زهيراً، في تعامله مع هذه البيئة، شديد الاعتماد على الحواس في إخراج صوره الشعرية، كأستاذة أوس بن حجر، بل هو أحرص منه على هذا لأنه يتخذ من ذلك طريقاً إلى وصف المعاني . وهو بهذا العمل يتخذ من الشعر فناً وصناعة إذ أنه لا يندفع فيه على سجيته، فهو الشاعر المصور المدقق بأصح معاني الكلام . ويعتبر الدكتور طه حسين أن زهيراً اعتمد في نظم الشعر إلى الفطرة ولكنها كانت مقيدة لأنها كانت إرادية بحيث ان الكلام معها لا يخرج على سجيته . وقد اتخذ زهير من هذا التقييد للفطرة، قاعدة لفنه الشعري في مقاومة الطبع، وعدم الاندفاع في قول الشعر مع السجية التي ترسله إرسالاً فتفيض به كما يفيض ينبوع بالماء وهو يحمل معه كل شيء مما حسن وقبح . . .

هذه المقاومة في تقييد الفطرة هي التي حملت شاعرنا على أن «يعمل شعره ويتكلفه» وهي التي جعلت الرواة يصفون زهيراً وأبناء مدرسته، في الصناعة اللفظية، ككعب والخطيئة ومسلم بن الوليد وأبي تمام والمنتبي، بأعمال الروية والأناة في قول الشعر. وما يؤكد الرواة أن زهيراً «كان كثير التنقيح والتهذيب لشعره حتى زعموا أنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر وينقحها في أربعة أشهر ثم يعرضها على أصحابه في أربعة أشهر فيتم له ذلك في حول (عام) كامل. من أجل ذلك سميت قصائده بالحوليات».

وتفسير ذلك، وانسجاماً مع رأي الدكتور طه حسين، أن زهيراً ينظم الشعر على السجية عندما تنتابه هزة وجدانية تحرك نفسه وتثير أشجانه وتدفعه إلى نظم الشعر فتسيل مع تلك التجربة وتنطلق على فطرتها وتتم القصيدة مقيدة بعمق التجربة الشعورية التي هزته لأول مرة، ثم لا يلبث بعد عملية النظم أن يعمد إلى إعمال الروية والصقل، ثم إلى أخذ رأي الجماعة نقداً وتقويماً... فتكون القصيدة، مع ما تحمله من الصنعة، على شيء من البساطة... ويكون هذا الشعر نسيجاً وحده في لفظه وتراكيبه الأمر الذي دفع النقاد والرواة إلى القول: إن زهيراً صنع سبع حويلات في سبع سنين. وفي ذلك يقول الجاحظ: «كان زهير بن أبي سلمى يسمى كبار قصائده الحويلات، ولذلك قال الخطيئة: خير الشعر الحولي المحكك (يقصد استاذة زهيراً). وقال الأصمعي: زهير بن أبي سلمى والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر،

وكذلك كل من جود في شعره، ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة». ثم يقول الجاحظ أيضاً في غير هذا الموضع: «القصيدة تمكث عنده (زهير) حولاً كريتا^(١) وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ويحيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله زمناً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوله الله من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات المنقحات والمحكمات، ليصير قائلها فحلاً خنزيدياً^(٢) وشاعراً مفلقاً».

أما الدكتور شوقي ضيف فيعلق على هذه الآراء قائلاً: «وسواء سمي زهير قصائده الطويلة بالحوليات أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن هذه التسمية تدل على مدى ما أحس به القدماء تلقاء مطولاته .. وتصوروا أن هذا الجهد يستنفد آماداً بعيدة، وتخليوها حولاً كاملاً».

وأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال: «زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاقل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولا يمدح أحداً إلا بما فيه، هذا في الأغاني وأما في العمدة لابن رشيق القيرواني فقد ورد قول عمر ان زهيراً «لا يعاقل بين الكلام ولا

(١) - كريتا: كاملاً.

(٢) - خنزيدياً: تاماً.

يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه». وبهذا يقول ابن سلام الجمحي كذلك «كان زهير أحصفهم (الشعراء) شعراً وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من المنطق».

ولا ضير في كل ما قيل في شعر زهير، فإن صفة تجويده والاعتناء به ماثلة أمام المتبصرين المعنيين في ثنايا هذا الشعر نفسه.

أما الطريق التي سلكها زهير، في شعره، فهي طريق التصوير الحسي المادي الذي يعتمد على التشبيه والاستعارة والمجاز في إظهار ما تلحظه الحواس وتتأثر به النفوس وتهتز طرباً ويكون الفن للفن في إبراز الصور الشعرية الخالدة. وزهير حين يندفع وراء سجيته الفطرية المقيّدة بالأنانة والروية والتجويد يجعل من الشعر فناً وصناعة حيث أنك تجد نفسك، وأنت تقرأ شعره، أمام صنّاع ماهر يحذف فن الكلام في رسمه لصوره ومعانيه الدقيقة الجميلة. فهو في كل ما بين أيدينا من نظم، لم يقصد التصنع لذاته، وإنما فرضته عليه ظروف تجربته الشعرية الخاصة التي كانت قد اعتملت في نفسه، إضافة إلى مراعاة نظروف بيئته العامة التي كانت سائدة في أيامه.

أما الأغراض الشعرية التي يمكن رصدها عند قراءة شعر زهير فهي تكاد تكون الأغراض نفسها التي تطرق إليها معاصروه في شعرهم. وإذا تأملنا أية قصيدة من مطولاته، إضافة إلى معلقته، نجد أنه يبدأها بذكر الديار، عموماً، والتغزل بذكر قاطنيتها من

الأحبة، إلى وصف حسي للطبيعة وما عليها من جماد وحيوان،
ووصف دقيق لعمليات الطرد والصيد حتى يصل في ذلك أو ينفذ
منه إلى مدح من ينصرف إليه بكليته وهو موضوع القصيدة، إضافة
إلى ما يتخلل ذلك من هجاء ورثاء وخمروندم ولا مبالاة ورد عتاب
وحكمة جليلة مستقاه فرضتها عليه ظروف البادية الصعبة التي
تدعو إلى التأمل والاستبصار، وذلك بأسلوب وصفي جلي سهل
المنال وبأبسط سبيل.

الغزل في شعر زهير.

الغزل في شعر زهير كالغزل في شعر غيره من شعراء عصره الذين كانوا يقصدون إليه كتوطئة للوصول إلى الغرض الأساسي موضوع القصيدة الذي يرمي إليه الشاعر. وإذا كان زهير يتفق مع أولئك الشعراء على النموذج المحتذى في العادة والتقليد فإنه يختلف معهم على الشكل والمحتوى إذ أنه رسام ماهر لصوره ومجسد حاذق لمعانيه حتى في فن الغزل نفسه.

ولو تتبعنا زهيراً في مطالع قصائده لوجدنا أنه كان غير شغوف بهذا اللون من الشعر في التعبير عن المعاناة التي يحسها الإنسان تجاه من يحب ويعشق من النساء، وخصوصاً أن هذا الشعر الذي بين أيدينا يدل على أن صاحبنا، زهيراً، قد تجاوز عهود الصباية وأصبح ميالاً إلى إعمال العقل والروية فيما يقوله لأن عهود الصباية، بالنسبة إليه، قد ولت فضرب عنها صفحاً لينصرف إلى الإعراب عن مكنونات النفس تجاه الإنسان المثال الذي تمتلئ به النفس إعجاباً واعتداداً كهرم بن سنان ومن حذا حذوه وسار على منواله كالخارث بن عوف وحصن بن حذيفة بن بدر، فامتلاث نفس زهير بهؤلاء إعجاباً وفاضت قريحته في مدحهم شعراً خلّد على

الأيام كما خُلدَ فيها بعد شعر المتنبي في بني حمدان . وزهير في هذا
المطلع مثلاً :

صحا القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يسلو

وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل^(١)

فهو هنا ، وكما يظهر من خلال مدلولات الكلام ، لا يتغزل
للغزل وإنما هذا أمر دعت إليه الضرورة وجرياً على التقليد السائد ،
وهو مع ذلك ، يتحدث عن صحوة القلب وهو لم يخلُ من السلو
والم الحب رغم تواتر السنين على قلبه المرهف ، ورغم أن أماكن
المحبوبة قد خلت من صاحبها . فصحة قلبه هذه ، ما هي إلا
دليل على وجوب الانقطاع عن الصباية والهوى من ناحية واندفاع
إلى الرحاب الواسعة التي يدفعه إليها كبر سنّه وتراكم السنين عليه
لينصرف إلى أمور يقتضيها كبره وحشمته إذ أنه أصبح إنساناً متزناً
رصيناً ولا يحسن به الانصراف إلى اللذادة والتشبيب بالنساء كما كان
في صباه . وزهير من خلال الصورة المرسومة في هذا البيت لا يصور
حباً ولا عاطفة وإنما يظهر عبقرية فذة في فن الشعر الغزلي .

ولننظر إليه من خلال هذه الأبيات التي يضمها العديد من
التشبيهات :

(١) - التعانيق والثقل : مكان في منازل غطفان في الحاجر .

تنازعها المها شهباً وثرُّ الد
 حُورِ وشاكهتُ فيها الظباء^(١)
 فأما ما فُويقَ العِقدِ منها
 فمن أدماء مرتعها الخلاء^(٢)
 وأما المُقلتان فَمِنْ مَهَاةٍ
 وللدُّرِّ المَلاحةُ والصفاء^(٣)

ألا ترى ، قارئى ، أن زهيراً في هذه الأبيات ، لا يصور رجلاً ولا عاطفة وإنما يحاول أن يعبر فيها عن قدرة عالية بارعة في وصف النساء في شعره حيث أكثر من التشبيهات ، فهي ثلاثة ، جمعها في البيت الأول ، إذ شبه صاحبتة بالمها والدر والظباء ، ثم ما لبث أن نشر هذه التشبيهات فجعل ما فويق العقد للظباء ، والعيون للمهاة ، والصفاء والملاحة للدر ؛ وهذا ما يؤكد أن زهيراً كان «يحقق صوره» ، ولم يكن ، في هذا التحقيق ، يعتمد على اللغة وحدها ، بل كان يعتمد ، قبل كل شيء على أن تكون الصورة واسعة هذه السعة التي تتضمن التفصيل والتفريع وكأنه يريد أن يحملها أكثر طاقة ممكنة في التعبير والتمثيل . وكان لزهير

(١) - المها : بقر الوحش ، الواحدة مهاة . أراد أن يقول : فيها شبه من المها في حسن العيون . وفيها شبه من الدر في صفاته وملاحته . شاكهت : شابهت أي أنها أي الحبيبة شابهت الظباء في طول عنقها .

(٢) - فويق العقد : كناية عن العنق . الأدماء الظبية البيضاء . الخلاء : الموضع الخالي .

(٣) - المقلتان : العينان . الملاحة : الجمال .

مهارة خاصة في استخدام العبارات المثيرة التي تجعل المنظر كأنه يتحرك تحت أعيننا. فهذه الصورة تؤكد أن صاحبها لم يكن كلفاً بحبيته بقدر ما كان شغوفاً بإظهار صورته كاملة في حدود إطارها الفني الجميل الذي رسمه لها. وما يدل على قولنا هذا قوله :

فصرم حبلها إذ صرمت

وعادى أن تلاقها العدا^(١)

نشعر هنا أن زهيراً مجرد من نفسه شخصاً يخاطبه ويأمره بقطع الحبل بينه وبين حبيته لأنها هي التي أظهرت العداوة وبدأت عملية القطع... والباديء أظلم... فكان زهيراً هنا يحاول أن يكبح جماح نفسه التي تأمره بالتصابي في حين أن كرامته تأبى عليه ذلك، فلماذا لا يصرف أمره عنها وهي تتماذى في منع نفسها عنه وإظهار العداوة؟ فتصوير زهير، لحبيته التي تظهر له العداوة وقد قطعت ما بينها وبينه من حبال المودة، ما كان إلا لأن موضوع الجمال عند تلك المرأة قد أثر به فوجد نفسه مدفوعاً إلى أن يرسمه ويتقصى جوانبه حتى أتت صورته على هذا الجانب من الجمال، بصرف النظر عن صدق عواطفه نحو صاحبة هذا الجمال، إذ أنه ما كان ليتودد لها لولا عاطفة حب دفينة تعتمل في نفسه.

ومهما يكن الرجل مترناً مترصناً فإنه لا يستطيع أن يخفي آلام الهجر والصدود إذ يقول:

(١) - صرْم: أمر بمعنى اقطع ما بينك وبين المحبوبة من أسباب العشق إذ أنها هي التي قطعت بمفارقتها لك. عادى: منع. العدا: المانع.

وقد كنت من سلمى سنين ثمانياً
 على صير أمر ما يُمرُّ وما يخلو^(١)
 وكنتُ إذا ما جئتُ يوماً لحاجةٍ
 مضتُ وأجئتُ حاجةً الغد ما تخلو^(٢)
 وكلُّ عجبٍ أحدثُ النَّأيَ عنده
 سلو فؤادٍ غير حُبِّك ما يسلو^(٣)

فهو في هذه الأبيات يشكو ألم الصدود والهجر، ولكن قلبه قد
 صحا من هذه اللوعة التي عذبتة أعواماً، ثم لا يلبث أن تعاوده
 الذكرى ويضيق بها ذرعاً فيقول:

تأويني ذكر الأحبة بعدما
 هجعتُ ودوني قلةُ الحزنِ فالرملُ^(٤)
 فأقسمتُ جهداً بالمنازل من مَنِيْ
 وما سُجِّقْتُ فيه المقام والعَمَلُ^(٥)

-
- (١) - علي صير أمر: على طرف الأمر وما يمكن أن يصير إليه في انتهاء.
 (٢) - أجئت حاجة الغد: أي دنت وحن وقوعها. ما تخلو: أي لا يخلو الإنسان من
 حاجة ما تراخت مدته. وكفى بالغد عما يستأنف من زمانه.
 (٣) - أراد أن كل حبيب بعد عن حبيته سلاه وهو ليس كذلك.
 (٤) - تأويني: أناني مع الليل. القلة: أعلى الجبل. الحزن: فاغلظ من الأرض.
 (٥) - مني: موضع في مكة. سُجِّقْتُ: حلقت. المقام: واحداً مقدماً. أي مقدم
 الرأس.

لَا رَتَجَلْنَ بِالْفَجْرِ ثُمَّ لَا ذَابْنَ
إِلَى اللَّيْلِ إِلَّا أَنْ يُعْرَجَنِي طِفْلٌ^(١)

ولكن ذكر الأحبة، هذا، أناه في الليل، وبينه وبينهن مسافات بعيدة، فنهض من مضجعه مقسماً أن يتابع سيره في الصباح، إلا أن ناقته قد وضعت فصيلها ومنعته عن متابعة سيره إلى من يحب من قوم هرم بن سنان وهم خير حى من معد.

فمن خلال هذه الأبيات يتبين أن الغزل لم يكن عند زهير غرضاً من الأغراض الشعرية قائماً بذاته، وإنما كان ذلك عادة جرى عليها شعراء عصره - كما ذكرنا مراراً - ومرد ذلك أن زهيراً لم يستعجل إلى السكون والراحة إلى الليل، وقد عزم على الرحيل، صباحاً، إلا لطموحه لأن يلتقي بسادات الناس من آل غطفان، دون أن نرى أنه تعمل عاطفة أو تكلف تعباً لأن جل همهم، قد تركز على إبراز صفات الممدوح، ولم تظهر في خلال ذلك أية عاطفة تذكر تجاه حبيبته أو أسفاً على صدودها عنه، اللهم إذا استثنينا هذه المسحة من الحزن نراها في بعض مطالعه وقد فرضتها عليه حاجة القصيدة الجاهلية إلى ذلك.

فانظر إليه وهو يصور دموع الحب:

(١) - أدا ب: أجد في السير. يعرجني: يمجسني ويعنني.

كَانَ عَيْنِي وَقَدْ سَالَ السَّلِيلُ بِهِمْ
 وَعَبْرَةً مَا هُمْ لَوْ أَنَّهُمْ أُمَمٌ ^(١)
 غَرَبْتُ عَلَى بَكْرَةٍ أَوْ لَوْلُو قَلْقُ
 فِي السَّلْكِ خَانَ بِهِ رَبُّاتِهِ النَّظْمُ ^(٢)
 فَالْأَحْبَةُ قَدْ سَارُوا بَعِيداً وَزِيَارَتُهُمْ أَصْبَحَتْ مُسْتَحِيلَةً لِبَعْدِهِمْ
 عَنْهُ فَتَسَاقَطَتْ لَذَلِكَ دُمُوعُهُ تَسَاقُطَ حَبَاتِ الْمَاءِ مِنَ الْغَرْبِ أَوْ
 كَتَسَاقُطِ حَبَاتِ اللَّوْلُو عِنْدَ انْقِطَاعِ سَلْكِ الْعِقْدِ. فَصُورَةُ الدُّمُوعِ
 عِنْدَ زَهْرِ هِيَ صُورَةُ حَسِيَّةٍ فَنِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنْهَا صُورَةُ عَاطْفِيَّةٍ تَوَثِّرُ فِي
 الْآخَرِينَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ زَهيراً شَاعِرَ حَازِقٍ يَعْرِفُ كَيْفَ يَصُورُ
 دُمُوعَ الْمُحِبِّينَ.

وَفِي الْقَصِيدَةِ الْقَافِيَةُ الَّتِي مَطْلَعُهَا:
 إِنْ الْخَلِيطُ أَجْدُ الْبَيْنِ فَاَنْفَرَقَا
 وَعُلِقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءَ مَا عَلِقَا ^(٣)
 قَامَتْ تَرَاوِي بِذِي ضَالٍ لِيُخْرِزَنِي
 فَأَصْبَحَ الْحَبْلُ مِنْهَا وَاهِنًا خَلِقَا ^(٤)

-
- (١) - السَّلِيلُ: اسم وادٍ. سَالَ بِهِمْ: سَارُوا فِيهِ. عَبْرَةٌ: مَاهِمٌ: مَا زَائِدَةٌ: أَيِ هُمْ
 سَبَبُ بِلَاثِي. الْأُمَمُ: الْقَصْدُ وَالْقَرَبُ. أَيِ لَوْ كَانُوا قَرِيبِينَ لَكُنْتُ أَزُورُهُمْ.
 (٢) - الْغَرْبُ: الدَّلْوُ تَسْقَى بِهَا الْإِبِلُ. السَّلْكُ: الْخَيْطُ. النَّظْمُ: جَمْعُ نَظَامٍ وَهُوَ
 الْخَيْطُ. وَقَوْلُهُ خَانَ رَبَاتُهُ: أَيِ انْقَطَعَ.
 (٣) - الْخَلِيطُ: الْمُخَالَطُ لَهُمْ فِي الْعَيْشِ أَيِ مُعَاشِرُهُمْ. أَجْدُ: اجْتَهَدَ. الْبَيْنُ:
 الْفَرَاقُ. اَنْفَرَقَ: انْقَطَعَ.
 (٤) - تَرَاوَى: تَبَدُّو، تَتَظَاهَرُ. الضَّالُّ: السُّدْرُ وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ.

بجيدٍ مُغزِلةٍ ادماءٍ خاذِلةٍ
 من الغطاء تراعي شادناً خرقاً^(١)
 كأن ريقَها بعد الكرى اغتُبَّتْ
 من طيبِ الرّاح لما يَعدُّ أن عَتَقَا^(٢)
 شجَّ السقاةُ على ناجودها شُبماً
 من ماءٍ لينةٍ لا طَرَقَا ولا رَنَقَا^(٣)

نرى من خلال هذه الأبيات أنه يشبه جيدها بجيد ظبية بيضاء، فامتلاً قلبها بحب ابنها، فهي كلفة به عاكفة عليه، كما يشبه ريقها بخمر قد مُزِجَتْ بالماء البارد لحدثها حتى تسلس على الشاربين. وهاتان الصورتان أريدتا لذاتهما، وتدلان على مهارة زهير في فن التصوير المادي المحسوس الذي لا يخاطب العين فقط بل يتعداها إلى الأذن أيضاً.

وزهير دائماً يكرر أن قلبه قد صحا عن حبه وأنه قد راجع نفسه فامتنعت عن الهوى في مثل قوله:

(١) المُغزِلة: الظبية ذات الغزال. الجيد: العنق. الأدماء: البيضاء. الخاذلة: التي خذلت القطيع وانصرفت إلى ولدها. الشادن: الذي قوي على المشي. الخرق: اللاصق بالأرض.

(٢) - يعلو: يجاوز. الاغتياق: شرب الخمر في العشي.

(٣) - الناجود: أول ما يخرج من الخمر وقيل كل إناء توضع فيه الخمر. الشبم: الماء البارد. لينة: اسم بئر بطريق مكة. الطروق: ما بالث فيه الإبل وبُعِرت. الرّيق: الكدر والوسخ. شج: صب.

لقد طالبتها، ولكل شيء
وإن طالت لجأته انتهاء

وهو بهذا كمن يترسم فنه مستقصياً موضوعه، غير مهتم في
غزل أوفي حب أوفي إظهار عاطفة نحو المعشوق وإنما كان يؤكد في
ذلك براعته الفنية الخاصة حيث أنك تراه في معظم مقدماته
لقصائده قد أكثر من وصف الظعن وتنقلات الأحبة وصورهن ،
وهو مع هذا كله يتلافى أسلوب امرئ القيس، في وصف الحب
والصبا، كما يتلافى أسلوب غيره من الغزلين المعروفين الذين
يجعلون من شعر الغزل موضوعاً قائماً بذاته وغرضاً يسعون إليه
ويعيشون معاناته. وزهير، في عملية التقصي والإحاطة بعناصر
صوره كاملة، إنما يريد، كما قال شوقي ضيف «أن يحفر الصورة في
أذهاننا حفراً».

ولو أعدت النظر ملياً بالمقطع السابق من قصيدته القافية
لوجدت أنه يشبه جيد حبيته أساء بجيد الظباء لجماله، ويجسد
عندها عاطفة الأمومة لاعتكافها على ولدها، وهو لا ينسى ريقها
الذي يشبه الخمر التي تصب عليها المياه الباردة لتزداد طيباً فيجد
الشاربون معها لذة وأنساً. فزهير، في تقصيه لصوره الغزلية،
مصور بارع خاطب آذاننا بما نراه عنده من اللوحات الغزلية
الجميلة والمعاني المجسدة السامية.

وإذا تابعتنا قراءة قصيدته الأنفة الذكر فماذا نرى؟ :

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ حَتَّى إِذَا هَبَطْتُ
 أَبْدَى الرُّكَّابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِسٍ فَلَقَا^(١)
 دَانِيَةً مِنْ شَرَوْرَى أَوْقَفْنَا أَدَمَ
 يَسْعَى الْحُدَاةُ عَلَى آثَارِهِمْ جِرْقًا^(٢)
 كَانَ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةً
 مِنَ النُّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحْقًا^(٣)
 تَمْطُو الرُّشَاءَ فَتَجْرِي فِي ثَنَائِهَا
 مِنَ الْمَحَالَةِ ثَقْبًا رَائِدًا قَلِقًا^(٤)
 لَهَا مَتَاعٌ وَأَعْوَانٌ غَدَوْنَ بِهِ
 قَتَبٌ وَغَرْبٌ إِذَا مَا أُفْرِغَ انْسَحَقًا^(٥)
 وَخَلَفَهَا سَائِقٌ يَحْدُو إِذَا خَشِيتُ
 مِنَ اللَّحَاقِ تُمُدُّ الصُّلْبَ وَالْعُنْقَا^(٦)

-
- (١) - أرمقهم: انظر إليهم. الركاب: الإبل. راكس: اسم واد. الفلق: المطمئن.
 (٢) - شرورى وأدم: موضعان. الحزق: الجماعات وواحدتها حزقة.
 (٣) - المقتلة: المذلل بالعمل. الجنة: البستان. السُّحْق: واحدتها السحوق:
 النخلة الطويلة الفروع والجرائد.
 (٤) - تمطو الرشاء: تمد الحبل. الثنائة: الحبل الذي يصل القتب بالدلو. المحالة:
 البكرة. الرائد: الذي يهجي ويذهب. القلق: الذي لا يثبت ويستقر.
 (٥) - القتب: أداة الدلو المستقر عليها. الغرب: الدلو. انسحق: مضى وبعد
 سيلانه.
 (٦) - الصلب: الظهر. يحدو يعني. خشي: خاف.

وَقَابِلٌ يَتَغَنَّى كَلِمًا قَدَرْتُ

على العَرَّاقِ يدها قائماً دفقا^(١)
يُجِيلُ فِي جَدُولٍ تَجْبُو ضَفَادِعِهِ

حَبَوَ الْجَوَّارِي تَرَى فِي مَائِهِ نُطْقًا^(٢)
يَخْرُجْنَ مِنْ شَرَبَاتٍ مَاؤُهَا طَجَلُ

على الجُدُوعِ يَخْفَنُ الْغَمَ وَالْغَرَقَا^(٣)

ألا نرى أن الشاعر في هذه الأبيات يترقب الظاعين ويتأمل رواحلهم وهي تحط في وادي راكس، والحداة يسرون خلفهم جماعات، وهو يتبعهم ببصره وهم أبعد من أن ينال منهم طرف، فيتملكه اليأس والحزن وتنهل دموعه في غير انقطاع، حتى تكاد هذه الدموع - لشدة انهمارها تسقي جنيئة باسقة الأغصان... ثم نراه حالاً لا يلبث أن ينصرف إلى الوصف الذي يتخلص منه إلى الممدوح وينسى بذلك حبه وعواطفه تجاه المحبوب.

فالشاعر في هذه الأبيات، مع ما تحمله من صور وأخيلة، لم يقصد فيها ولم يشر إلى أن عاطفة جياشة قد دفعته إلى وضع هذه الصور لعلاقة حميمة تربطه بالمحبوبة، وإنما نراه قد قصد إلى هذه

(١) - القابل: الذي يتلقى الدلو ويصب ما فيها. العراق: مفردها عرقوة خشبة في قم الدلو يشد بها الحبل. قدرت: وصلت وقبضت.

(٢) - يميل: يصب. الحبو: الوثب. النطق: الطرائف التي تعلقو الماء.

(٣) - شربات: واحدها شربة: حويض كالمعلق حول النخلة لصب ماء الري فيه. طجل: أخضر يميل إلى الغبرة.

الصور لذاتها لتأكيد براعته في فنه الخالص وكأنه ما رسم صورهِ إلا
ليُرسِم فأبدع في كل ما رسم .

ومن خلال شعر زهير نرى أن هذا الشعر قد وُضِعَ خلال حرب
داحس والغبراء وبعدها، وخصوصاً بعد أن دفع هُرم بن سنان
والحارث بن عوف ديات القتل من الفريقين . وأما شعره قبل ذلك
فلم يصل إلينا شيء منه يذكر . ومن المحقق أن هذا الشعر الذي
أوصله الرواة إلينا، من شعر زهير، قد نظمهُ صاحبه بعد أن
تقدمت به السن وعركته الحياة ولم يعد خليقاً به أن ينصرف إلى
الصبابة ويصرف من أجلها وقته . فانظر إليه من خلال الأبيات
التالية :

صحنا القلبُ عن ليلي وأقصرَ باطلُهُ
وعُرِّيَ أفراس الصُّبَا ودَوَّاجِلُهُ^(١)
وأقصرْتُ عما تعلِّمين وسُدَّدْتُ
عليَّ سِوَى قصِدِ السَّيْلِ مَعَادِلُهُ^(٢)
وقالَ العَدَارَى : إنما أَنْتَ عَمَّنَا
وكانَ الشَّبَابُ كالخَلِيطِ نُزَايِلُهُ^(٣)
فأصْبَحَنَ لَا يَعْرِفُنَ إِلَّا خَلِيقَتِي
وإلا سَوَادَ الرَّأْسِ والشَّيْبَ شَامِلُهُ^(٤)

(١) - أقصر : كَفَّ .

(٢) - عما تعلِّمين : أي كَفَفْتُ عما عهدتني فيه من الصبابة .

(٣) - الخليط : الصاحب : المعاصر . نزايله : نفارقه .

(٤) - خَلِيقَتِي : أي خُلُقِي ، أخلاقي وحشمتي .

فتراه هنا يُعْرِضُ عن اللذة ويُقَصِّرُ عن اللهو والعبث والمجون،
ويقبل على الجدد دون أن يكون عنده رغبة فيه، وإنما يفعل ذلك
لأنه مقصر وعاجز عن ممارسة كل متاع الحياة. فالشيب وكبر
السن أمران قد صرفا عنه العذارى اللواتي آذينه بهذه العبارة «إِنَّمَا
أَنْتَ عَمَنَّا» وبمَثَابَةِ الدنا الذي ليس له عندنا سوى مكان التقدير
والاحترام من أجل ذلك نزعِم أن زهيراً لم يقل غزلاً حباً بالغزل
والتشبيب ولم تكن غايته إظهار المتعة الحسية في صورهِ الغزلية وإنما
كان الأمر عنده صناعة . . . والجودة في هذه الصناعة التي تساعد
على أن ينفذ منها إلى غرضه الأساسي فيما قاله من شعر.

أما الطريق التي سلكها زهير في غزله فهي طريق الوصف المادي
والتشبيه الحسين في كل أوصافه. فانظر معي إلى الأبيات الأخيرة
السابقة: ففي البيت الأول نرى أن أصحاب البيان والصناعة
اللفظية قد شغفوا به كثيراً إذ جعل للصبا أفراساً ورواحل، كان
يركبها حين كان الشباب يؤاتيه، وعندما أدركه الكبر امتنع عن
ذلك كله وعزى أفراس الصبا ورواحله لأنها لا تعينه على رواح أو
غدو للوصول إلى المحبين. ثم انظر إليه في البيت الثاني كيف شبه
الشباب بالخليط، ثم كيف التفت في البيت الرابع إلى رأسه وقد
شملة الشيب ولم يعد له بدٌّ من أن ينصرف إلى الجدد لأن خُلُقَهُ يأبى
عليه حياة اللهو والصبا التي يحن إليها.

الوصف في شعر زهير

قلنا في أكثر من موضع، إن زهيراً، في شعره فنان مبدع ورسام حاذق قادر على أن يحفر الصورة في أذهاننا حفرأً، وهو يعتمد في ذلك كله على إحساسه المرفف بحقيقة الأشياء التي يعايشها، فتتناولها حواسه ومنطقه بالعرض والتنسيق فتظهر أمامنا لوحات فنية مؤثرة رائعة الجمال.

ولنقرأ هذه الأبيات بإمعان:

وغيثٌ من الوسميِّ حوَّيْلَاغُهُ
أجابت رَوَايِهِ النَّجَا وَهَوَاطِلُهُ^(١)
هَبَطْتُ بِمَسُودِ النَّوَاشِرِ سَابِحٍ
مَمْرٍ أَسِيلٍ الْخَدَّ نَهْدٍ مَرَاكِلهُ^(٢)

(١) - الغيث: المطر. الوسمي: أول المطر. الحو: الشديد الخصرة. التلاع: مجاري المياه. النجا: الواحدة نجوة: المرتفع من الأرض. الهوطل: السحاب الماطرة.

(٢) - المسود: الشديد. النواشر: أعصاب الذراع. الممر: المقتول. أسيل: سهل. النهْد: الضخم. المراكل: القوائم.

تَمِيمَ فَلَوْنَاهُ فَأَكْمِلَ صُنْعُهُ
 فَتَمَّ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ^(١)
 أَمِينٍ شَطَاهُ لَمْ يُخْرِقْ صِفَاقُهُ
 بِمِنْقَبَةٍ وَلَيْمَ تُقَطِّعَ أَبَاجِلُهُ^(٢)

فماذا نلاحظ في هذه الأبيات؟ أفلا نرى صورة النبات الغض الذي صدر عن المطر الوسمي، فملاً هذا النبات الأخضر كل المرتفعات والمنخفضات مما جعل الناس، والشاعر معهم، يندفعون إلى الطبيعة الغناء يشاركونها تلك البهجة على ذلك البساط الجميل؟ . كما تحمل هذه الأبيات صورة الجواد الذي أقبل به الشاعر في أصحابه إلى تلك الجنة، وهم يريدون الطرد والصيد، والجواد مع هذا محكم الخلقة أشد الإحكام، وقد فطموه منذ مدة قصيرة وتعهدوه بالعناية والرعاية، وهو كذلك نشيط أشد النشاط لأنه لم يتعرض لمرض أو لعلة تعيق نشاطه ومرحه .

ولنتنقل من وصق الغيث ووصف الجواد إلى جو آخر في رحاب هذه القصيدة:

(١) - تميم : تام الخلقة . فلوناه : فطمناه . عزته : عليت عليه : نسبته . الكاهل : بين الكتفين أسفل .

(٢) - الأمين : القوي . الشطى : عظيم صغير لاصق بالذراع . الصفاق أسفل البطن . لم يخرق : غير مريض . المنقبة : حديدة البيطار التي ينقب بها . الأباجل : الواحد أبجل : عرق في اليد .

فِينَا نُبْغِي الصَّيْدَ جَاءَ غُلَامُنَا
يَدِبُّ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُهُ^(١)
فَقَالَ: شَيْءٌ رَاتَعَاتْ بِقَفْرَةٍ
يُمَسْتَأْمِدُ الْقُرْيَانِ حَوْ مَسَائِلُهُ^(٢)
ثَلَاثَ كَأَقْوَاسِ السَّرَاءِ وَمِسْحَلِ
قَدْ اخْضَرَ مِنْ لَسِّ الْغَمِيرِ جِحَافِلُهُ^(٣)
وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشُهُ
فَلَمْ تَبْقَ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَائِلُهُ^(٤)

حيث تظهر صورة الغلام الذي يتلصص محاولاً إخفاء نفسه كي لا ينفر الحمر الوحشية، وهو يخبر الصيادين عن مواقعها وهي ترتع بين النبات الغض والمياه تجري منسابة بين الحصى. إلا أن هذه الحمر قد جرّدت من صغارها فلم يبق إلا هذه الأتن الثلاث، وفحلها الذي اخضرت شفتاه لكثرة ما تناوله من العشب الطري الأخضر. أو لا ترى معي أن هذه الصورة الأخيرة، رغم

(١) - نبغي: نطلب، نريد. يدب: يمشي راجلاً. يضائله: يُصغّره.

(٢) - الشياه: أراد بها الحمر الوحشية. المستأسد: الطويل. القرين: مجاري الماء إلى الرياض. حو: خضر. المسائل: حيث يسيل الماء.

(٣) - ثلاث: أي ثلاث أتن. السراء: شجر يتخذ منه الرماح. المسحل: الحمار الوحشي. الغمير: النبت الأخضر غمره نبت أحمر أطول منه. الجحافل: مفرد جحفة: لذي الحافر كالشفة للإنسان.

(٤) - خرّم: قطع وهنا: أخذ. الطراد: الصيادون. حلائنه: أزواجه، الواحدة حليلة.

بساطتها وسذاجتها، جميلة لما تحمله من دقة في التصوير وبراعة في الوصف إذ أن جمال اللفظ يكون على مستوى حديث الغلام الذي جاء ينقل خبر الحمر والشياه كي يشجع الصيادين الذين ينتظرونه على أحر من الجمر، على القيام بعملية الصيد الميمون وهو يضائل شخصه ويصفره حتى يكاد يخفيه حتى لا يخيف تلك البهائم من ناحية وحتى يقوم بما أوكل إليه من ناحية أخرى؟.

وانظر إليه في وصف تطويع المهر إذ يقول:

فَبِتْنَا عُرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا
يُزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنَزَاوِلُهُ ^(١)
وَنَضْرِبُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ قَدَّالُهُ
وَلَمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِلُهُ ^(٢)
وَمُلْجِمُنَا مَا إِنْ يَنَالُ قَدَّالُهُ
وَلَا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ إِلَّا أَنَامَلُهُ ^(٣)

ألا تلاحظ معي كيف تناول زهير وصف الذين يعملون على تطويع الحصان البكر حتى يسهل قياده على الرغم من ضخامته وارتفاعه وتمرده إذ لا يمكن أن تنال من رأسه، للجمه، إلا بعد أن تتمطى وأنت تقف على رؤوس أناملك؟ وألا ترى كذلك كيف

(١) - فبتنا عرابة: لا يسترنا شيء. يزاولنا: يعالج مدافعتنا. نزاوله: نحاول إجماعه وركوبه.

(٢) - اطمأن قذاله: خفض رأس. القذال معقد عذاره في الرأس.

(٣) - الملجم لا ينال من قذال الجواد كناية عن ارتفاعه.

استطاع زهير أن ينفذ إلى نفس الجواد حين أحس بما يبرّده المطوعون في الصباح حيث استحوذ عليه الفزع فألجموه ولم يتمكنوا من إزالة مخاوفه . أما الغلام فكان أيضاً على علم بما ينتاب الجواد في هذه المعركة لأنه كذلك على دراية تامة بما يوكل إليه مما اضطره إلى معاودة الجواد حتى تمكن من تطويعه .

ومن هنا نرى أن زهيراً قادر على تصوير المعاناة الداخلية النفسية إضافة إلى كونه قادراً على تصوير الأمور الحسية وكأنما كان زهير خبيراً بتقصي حالات النفس وسبر أغوارها كما هو الحال في رسم صورته الحسية ، ومرد ذلك يعود لشدة تمرسه في أمور الحياة فنفذ ببصيرته ليس فقط إلى نفس الإنسان فحسب بل وإلى نفس الحيوان أيضاً . فالغلام يعرف تماماً ما يطلب منه فهو مطمئن له ومستعد إليه ، والحصان يعرف كذلك ماذا يراد من مزاولته ، ولكن إصرار المطوع على تطويع المهر كان أقوى من إصرار المهر على معاندته فانصاع إليه سهل الانقياد بعد جهد جيد :

فَلَايَا بِلَايٍ مَا حَمَلْنَا وَلَيْدَنَا

عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكِ ظِمَاءٍ مَفَاصِلُهُ^(١)

فَتَبَعَ آثَارَ الشِّبَاءِ وَلَيْدَنَا

كَشُوبِ غَيْثٍ يَحْفَشُ الْأَكْمَ وَأَبْلَهُ^(٢)

(١) - اللَّي: الجهد. الوليد: الغلام. المحبوك: الشديد الخلق. ظمَاء: قليل اللحم.

(٢) - الشُّوب: الدفعة من المطر. يحفش: يحرق. الوابل: المطر.

وبعد أن صعد الغلام ظهر الجواد، انطلق به في مطاردة الشياه كأنه شُبوب قذف به من السماء، غزير، فنفرت منه تلك الشياه مذعورة والحصى يتطاير خلفها على وجهه إلى أن تمكن الوليد من الاستفراد بالحمار من دون صواحيبه وعاد به مدمى، وعلى حصانه شيء من دمه.

وعندما يتحدث زهير عن البقرة والوحشية، فإنما ينعتها كذلك بالصفات الحسية والنفسية التي تحدث عنها فيما سبق من خلال علاقة الغلام بالحصان ومن خلال علاقته بالحمير الوحشية. فهذه البقرة طلقة جميلة مستنفرة دائماً لأنها تترك وراءها وليدها الذي تحرص عليه، كل الحرص، من الليث والإنسان، حتى لا يصاب بأذى. وهي في استنفارها شاكية السلاح، بقرنين قوين، وكأنها ما خلقت إلا للحرب والكفاح ضد أعدائها الألداء. وكيف لا تكون كذلك مستعدة وهي تحمي بقرنيها القوين يقيانها الخطر ويؤمنان وحدتها. والذي يزيد لها استنفاراً أذناها المرهفتا السمع اللتان تساعدانها على الحيلة والحذر خشية أي خطر مفاجيء. أما عيناها فناذتان تساعدانها على النظر إلى البعيد.

انظر إليه كيف يضع أمامنا هذه الصورة بكل دقة وإمعان:

كَخَنَسَاءِ سَفْعَاءِ الْمَلَاطِمِ حُرَّةً
مُسَافِرَةً مَزْرُودَةً أَمَ فَرَقْدَ

(١) - الخنساء: القصيرة الأنف. السفعاء: السوداء في حرة. المزرودة: المذعورة. أم فرقد: أم ولد.

غدت بسلاحٍ مثله يتقى به
 وَيُؤْمِنُ جَاشَ الْخَائِفِ الْمُتَوَحِّدِ^(١)
 وسامعتين تعرف العتق فيهما
 إلى جَنْزِرٍ مَذْ لُوكِ الْكُعُوبِ مُحَدَّدِ^(٢)
 وناظرتين تطهران قذاهما
 كَأَنَّهَا مَكْحُولَتَانِ بِإِثْمِدِ^(٣)
 طباهها ضحاه أو خلاء فخالفت
 إليه السباع في كناس ومرقد^(٤)

فزهير يعرض لنا، في هذه الأبيات صورتين: الأولى صورة
 البقرة الوحشية من الخارج حيث تلمح لونها وحركاتها ووسائل
 دفاعها. والثانية هي صورة البقرة النفسية من خلال قلقها على
 وليدها وحنينها إليه وخصوصاً أنها تركته وحيداً في كنفه وقد
 يتعرض له السباع، فعادت مسرعة لتراه بعد أن كانت مستجيبة
 لدعاء الرعي في ضحائه.

ولو تابعتنا صورة هذه البقرة فماذا نرى؟

-
- (١) - أراد بالسلاح: قرنيتها. الجاش: الصدر.
 (٢) - السامعتان: الأذنان. العتق: الأصل من صفات النجاة. مدلوك الكعوب:
 أملتس. محدد: شحوذ.
 (٣) - تطهران: ترميان. القذى: ما يعكر صفاء العين. الإثمد: الكحل.
 (٤) - طباهها: دعا للرعي. ضحاه: وجبة الأكل للحيوان. خالفت إليه: قصدت
 إليه. الكناس: التستر من الحر أو من البرد.

أَصَاعَتْ فَلَمْ تُغْفَرْ لَهَا خَلَوَاتُهَا
فَلَاقَتْ بَيَانًا عِنْدَ آخِرِ مَعْهَدٍ^(١)
دَمًا عِنْدَ شِلْوٍ تَحْجُلُ الطَّيْرُ خَوْلَهُ
وَبِضْعٍ لِحَامٍ فِي إِهَابٍ مُقَدَّدٍ^(٢)
وَتَنْفُضُ عَنْهَا غَيْبَ كُلِّ خَمِيلَةٍ
وَتَحْشَى رُمَاةَ الْغَوْثِ مِنْ كُلِّ مَرْصَدٍ^(٣)
فَجَالَتْ عَلَى وَحْشِيَّهَا وَكَانَهَا
مُسْرِبَلَةً فِي رَازِقِيٍّ مُعْضَدٍ^(٤)
وَلَمْ تَذِرْ وَشَكَ الْبَيْنَ حَتَّى رَأَتْهُمْ
وَقَدْ قَعَدُوا أَنْفَاقَهَا كُلِّ مَقْعَدٍ^(٥)

(١) - أصاعت: تركت ولدها وغفلت عنه. تغفر: تسر، تسامح. لاقت بياناً: وجدت ما بقي من ولدها. عند آخر معهد: عند آخر موضع تركته فيه.

(٢) - الشلْو: العضو، القطعة. تحجل: تحشي مشي القيد. الإهاب: الجلد. المَقْدَد: المخرق، المشقوق.

(٣) - تنفض عنها: تطرد عنها. الغيب: كل ما استتر عنك. الخميعة: رملة ذات شجر وهي البستان الكثيف الشجر. الغوث: قبيلة من طيء اشتهر أهلها بالرماية.

(٤) - وحشيها الجانب الذي لا يركب منها وهو الأيمن. جالت: مشت ذهاباً وإياباً مسربة: لابسة عليها ثوباً. الرازقي: الثوب الأبيض المعضد: المخطط.

(٥) - وَشَكَ البين: سرعة وقوعه وفراقها لولدها. أنفاقها: ممراتها وطرفها. رأَتْهم: رأت الرماة وقد قعدوا يترصدونها.

وَأَرَوْا بِهَا مِنْ جَانِبَيْهَا كِلَيْهِمَا
وَجَالَتْ، وَإِنْ يُجْشِمْنَهَا الشَّدُّ تَجْهَدُ^(١)
تَبْذُ الْأَلَى يَأْتِيْنَهَا مِنْ وَرَائِهَا
وَإِنْ يَتَقَدَّمَهَا السَّوَابِقُ تَصْطَلِدُ^(٢)
فَأَتَقَدَّزَهَا مِنْ غَمْرَةِ الْمَوْتِ أَنَّهَا
رَأَتْ أَنَّهَا إِنْ تَنْظُرِ النَّبْلَ تُقْصِدُ^(٣)
نَجَاءً مُجِدُّ لَيْسَ فِيهِ وَتَبِيرَةٌ
وَتَذِيْبُهَا عَنْهَا بِأَسْحَمِ مَذْوَدٍ^(٤)
وَجَدَّتْ فَالْقَتَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَهَا
غُبَاراً كَمَا فَارَتْ دَوَاحِخُ غَرْقَدٍ^(٥)
بِمُلْتِمَاتٍ كَالْحَذَارِيفِ قَوِيْلَتْ
إِلَى جَوْشَنِ خَاظِي الطَّرِيقَةِ مُسْنَدٍ^(٦)

(١) يجشمها: يكلفنها. تَجْهَدُ: تسرع.

(٢) تبذ: تسبق وتغلب. الألى يأتيها: الكلاب. تصطد: تصد الكلاب
بقرنها.

(٣) - تنظر النبل: أي تنظر أصحاب النبل وهم رماته.

(٤) - النجاء: السرعة. الوتيرة: التلبث والفترة. التذيب: من ذب أي دافع وهو
الدفاع.

(٥) - الدواخن: واحدها دخان. الفرقد: الشجر.

(٦) - الملتمات: القوائم التي تشبه بعضها بعضاً. الحذاريف: مفردها.
خذروف: لعبة يلعب بها الصبية. شبه القوائم بها الخفتها وسرعة دورانها على
نفسها. قويل: يقابل بعضها بعضاً. الجوشن: الصدر الخاطي: الكثير
اللحم، المتراكب. الطريقة: اللحمة في أعلى الصدر. المسند: ما يسند إلى الظهر.

ولقد كانت فجیعة تلك البقرة عظيمة عندما رأت أنه لم یبق من ولدها غیر أشلاء من اللحم والجلد المقدد والدم المهرق، والطيور تتحجل مجتمعة على هذه الأشلاء. فاغتمت تلك البقرة من هذا المنظر وفقدت كل أمل في الحياة فهامت على وجهها مسرعة مذعورة مرعوبة وهي تحشى رماة عشيرة الغوث الذين كانوا یتربصون بها وهم یوجهون إليها نبالهم وكلابهم، وهي تتراءى لهم بثوبها الأبيض المخطط. ولم تكن تدري أن الموت یترصدها حتى رأت بأم العین أن وقوعه أوشك أن یحصل لولا أن رأت السهام تتجه نحوها فتجنبتها في الوقت المناسب، إضافة إلى كلاب الصيد التي حاولت أن تسد عليها المنافذ فقاومتها بقرونها الفولاذية إلى أن أفلتت من الموت، الذي كان محققاً، بما تملكه من قوة جسدیه خارقة من ناحية وبما أثارته خلفها من غبار كأنه غابة من الدخان من ناحية ثانية، وتسعفها في ذلك كله خفة قوائمها التي كانت تظهر لسرعتها وخفتها كأنها خذاريف الأطفال في شدة دورانها واتساقها واندفاعها.

ألا ترى أن في هذا الوصف نوعین من الصور؛ النوع الأول: صور حسیه مادية یخاطب فيها حواسنا إذ جعل مثلاً قوائم البقرة متناسقات متقابلات یقابل بعضها بعضاً، وهي قد أضفت على هذه البقرة ستاراً من الحققة والقوة والرشاقة، حتى انك تستطيع أن ترى أن هذه البقرة نسج وحده في جمال الصورة وروعة الحركة في کمال خلقها وتنميتها، فتأكد من ذلك، أن زهيراً، في وصفه،

رزين هادىء متزن لا يصور ولا يتقصى فيما يُصوّرُ إلا لأن الضرورة الفنية تفرض عليه ذلك. والنوع الثاني صورٌ نفسية تُظهر بشكل أو بآخر مقدار عاطفة هذه البقرة تجاه ولدها ومقدار خوفها من المتربصين بها، مع كلاهم، وهم يوجهون نحوها سهام الموت التي كانت تلك البقرة تتلافها بنظرها الثاقب وكأنها تخطط وتحسن التخطيط إذ فازت بالنجاة بما أحدثته خلفها من الغبار الذي وضع بينها وبين أعدائها ستاراً من الحماية والاطمئنان.

حقاً لقد استنفذ زهير، فيما عرضنا من المقاطع الوصفية عنده، كل براعته حيث وشاها بالتشبيهات الجميلة وقد ملأها بذلك حركة ورشاقة، وأغناها دقة حتى بدت جلية واضحة مخاطب منا العقل والنفس معاً ليشهدا بحلاوة الصورة وسمو المعنى.

أما في وصف الخمر ومجالسه، فانظر معي إلى هذه الأبيات:

وقد أغدو على ثُبّةٍ كِرَامٍ
نَشَاوَى واجِدِينَ لِمَانِشَاء^(١)
لَمْ رَاحٍ وَرَاوُوقٌ وَمِيسْكٌ
تَعْلُ بِهِ جُلُودُهُمْ مَاءً^(٢)

(١) - الثُبّة: الجماعة من الناس. نشاوى: سكارى. واجدين لما نشاء: قادين على تناول ما نشاء من الطعام والشراب وممارسة الطرب والغناء.

(٢) - الراح: الخمر. الراووق: المصفى أو المصفاة. تعل: تطيب به.

يَجْرُونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ
 حُمَيَّا الْكَأْسِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ^(١)
 تَمَشَّى بَيْنَ قَتْلٍ قَدْ أَصِيبَتْ
 نَفْسُهُمْ وَلَمْ تُهْرَقْ دِمَاءُ^(٢)

فالشاعر هنا يصف سيره صباحاً مع مجموعة من الناس وقد لعبت الخمر في رؤوسهم فأخذت بهم النشوة وهم قادرون على إيجاد ما يريدون من أكل وشرب وطرب. ولهذا قد اصطحبوا معهم الخمر ومصفاتها لتنقيتها، فهي طيبة الرائحة ممسكة حتى تطيب بها نفوسهم بعد أن يمازجوها بالماء لقتل حلتها. وبعد أن تفعل الخمر في رؤوسهم تراهم يجرّون أذيالهم يتبخثرون تبيها ويغنون طرباً من فرط النشوة، حتى ترى نفسك وأنت بينهم كأنك بين قتل ولكن دون أن تُهرقَ الدماء وتُزهقَ الأرواح بحمياً الخمر.

ألا ترى أن زهيراً في هذه الأبيات، كما هو في غيرها، قد تقصى الصورة بجزئياتها، الدقيقة، فمن خروجهم إلى وقوعهم قتل بحمياً الخمر، وكأنه قد جعل أعضاء هذا المجلس يترنحون تحت ضغط الخمر أمامنا وكأنهم موق. فهذه الصورة سهلة المأق قريبة المال، لا تتطلب منا إعمال فكر أو كد ذهن الأمر الذي جعل

(١) - البرود مفردا برد: الثوب الموشى. حميا الكأس: سورة الخمر وصدمتها بالرأس.

(٢) - تمشي: تسير والضمير للخمر. القتل هنا كناية عن السكرى.

الدكتور طه حسين يعترف في أكثر من موقف له أن زهيراً قد طوع
الشعر كما طوع غلامه الجواد الشموس فسهل قياده عليه وأصبح
زهير بالشعر علماً.

المدح في شعر زهير بن أبي سلمى

إن ما يؤكد الرواة، إضافة إلى ما يؤكد ديوان زهير نفسه، هو أن زهيراً قد انقطع إلى مدح الغطفانيين وخصوصاً مدح هرم بن سنان بن حارثة المري والحارث بن عوف وحسن بن حذيفة بن بدر.

ففي قصيدته الدالية التي مطلعها:

غشيت دياراً بالبقيع فثمد
دوارس قد أقوين من أم معبد^(١)
أربت بها الأرواح كل عشية
فلَمْ يَبْقَ إِلَّا آلُ خَيْمٍ منضد^(٢)
وغير ثلاث كالحمام خوالد
وهاب محيل هامد متلبد^(٣)

(١) - البقيع وثمد: موضعان. دوارس محوة. أقوين: أقفرن.

(٢) - أربت: لازمت. الأرواح مفردها ربح. الأل: مفردها آلة: خشبة شعبة الخيم: مفردها: خيمة. المنضد: المرتب.

(٣) - يريد الأثافي: حجارة الموقد. الخوالد: الباقية. الهابي: الرماد. الهامد: المتغير. المتلبد: اللاصق.

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهَا لَا تُجِيبُنِي

نَهَضْتُ إِلَى وَجَنَاءِ كَالْفَعْلِ جَلَعَدٍ^(١)

نرى أن زهيراً، في هذه القصيدة ، كما في غيرها من مطولاته، يبدأ، وكعادة الشعراء الجاهليين، بوصف ديار الأحبة التي أفقرت منهن ورفضت أن تجيبه على أسئلته عنهن الأمر الذي جعله يجد نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى ناقة القوة السريعة التي لا يلبث أن يشبها بالبقرة الوحشية حيث يستطرد في وصفها، وذلك مراعاة للنظير، ناعثاً إياها بكل صفات السرعة والحياة والحذر... وكيف لا تحذر هذه البقرة وقد تركت وليدها عرضة للنسب... وكيف لا تعدو والصيادون يتربصون بها وقد وجهوا نحوها كلابهم وسهامهم... ولكنها نجت منهم بفضل ما أثارته في وجوههم من غبار حتى غدت وكأنها في غابة ظليلة... وبسرعة تفوق التصور وبعد ثلاثة أيام من المسير وجد زهير نفسه وجهاً لوجه أمام هريم الذي لا توصل أبوابه أبداً في وجه قاصديه، سواء أجاؤوه في ساعات سعدهم أم في ساعات نحسهم وبؤسهم:

إِلَى هَرِمٍ تَهْجِيرُهَا وَوَسِيْجُهَا

تَرْوُحُ مِنَ اللَّيْلِ التَّمَامِ وَتَغْتَدِي^(٢)

(١) - الضمير في تجيبني يعود إلى الدار. الوجناء: الناقة الضخمة. الجلعدي: الشديدة.

(٢) - تهجيرها: سيرها عند اشتداد الحر في الهجرة. وسيجها: سيرها السريع.

إلى هَرَمٍ سَارَتْ ثَلَاثًا مِنَ اللَّوَى
فَنِعْمَ مَسِيرُ الْوَائِقِ الْمُتَعَمِّدِ^(١)
سِوَاءَ عَلَيْهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتَهُ
أَسَاعَةَ نَحْسٍ تَتَّقَى أَمَّ بِأَسْعَدِ
وهرم مع هذا قاهر الكماة ومنقذ المقيدين الأسرى، وهو
شجاع، كالأسد الذي يقف أمام عرينه ليحمي أنثاه وشبليه،
ومتأهب دائماً ولا يفر إذا دعي لنجدة. وهو كذلك فارس حرب
مجرب يلوذ به الفرسان لأنه قادر على الدفاع عن القوم ليس فقط
بحسامه بل وبلسانه أيضاً. فهو بهذا شاعر مفوه وخطيب مصقع،
إضافة إلى كونه فارساً صنديداً مبرزاً. وهو كذلك حَمَامُ هموم القوم
وقاهر الأعداء وماوى كل طريد:

أَلَيْسَ بِضَرَابِ الْكُمَاةِ بِسَيْفِهِ
وَفَكَاكِ أَغْلَالِ الْأَسِيرِ الْمُقَيَّدِ
كَلَيْثِ أَبِي شِبْلَيْنِ يَحْمِي عَرِينَهُ
إِذَا هُوَ لَا قَى نَجْدَةً لَمْ يُعْرَدُ^(٢)
وَمِذْرَهُ حَرْبٍ حَيْثُهَا يُتَّقَى بِهِ
شَدِيدُ الرَّجَامِ بِاللُّسَانِ وَبِالْيَدِ^(٣)

(١) - اللوى: منقطع الرمل وهو اسم موضع هنا. الواثق: المتأكد. المتعمد: القاصد.

(٢) - لم يعرد: لم يفر.

(٣) - المذرة: فارس القوم الذي يدافع عنهم. حيثها: شدتها. الرجام: المراماة بالخصوصة.

وَنَقَلَ عَلَى الْأَعْدَاءِ لَا يَضْمُونَهُ
وَحُمَالُ أَثْقَالٍ وَمَأْوَى الْمَطْرُدِ^(١)

أما في الكرم فهرم كالغمام الغريم خيرُه جميع الكائنات بما في ذلك إعالة اليتامى فهو بذلك محمود الخلق وخالد على الزمن . كما أنه سباق إلى الأمور العظيمة التي قد تعرض لقيس عيلان قبيلته . وأما في الغنائم فهرم لا يكثرها بغية الإضرار بذوي القربى إذ أنه ليس ببخيل وهو بذلك تقي نقي لا غبار عليه حيث لا يجعل نصيبه من الغنيمة غير رُبْعها الذي يستحقه دون أن ينزل الظلم بأحد ، إذ لا ينال ربع الغنيمة سوى فارس القوم ، وهذا حق للفارس ومتعارف عليه . لذلك فهو عندما اعترضه عارض بجيش عرم استل سيفه وقهر ذلك العارض الجبار وغنم ما غنم ولم يأخذ من ذلك إلا ما يستحقه فهنيئاً له :

أَلَيْسَ بِفَيَاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ
ثُمَالِ الْيَتَامَى فِي السَّنِينَ مُحَمَّدٍ^(٢)
إِذَا ابْتَدَرْتَ قَيْسَ بْنَ عَيْلَانَ غَايَةً
مِنَ الْمَجْدِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهَا يُسَوِّدُ^(٣)

(١) - ثقل على الأعداء قوزي عليهم . المطرود : المطرود من العشيرة .

(٢) - الفياض : الكثير العطاء . ثمال اليتامى : معيولهم .

(٣) - ابتدرت : تسابقت : فاجأت . يُسَوِّدُ : يصبح سيذاً على الناس .

سَبَقَتْ إِلَيْهَا كُلُّ طَلْقٍ مُبَرَّرٍ
سُبُوقٍ إِلَى الْغَابَاتِ غَيْرِ مُجَلَّدٍ^(١)
كَفَعَلَ جَوَادٍ يَسْبِقُ الْخَيْلَ عَفْوُهُ
فَيُسْرِعُ وَإِنْ تَجَهَّدَ وَيَجْهَدَنْ يَتَعَدَّ^(٢)
تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكْثَرْ غَنِيمَةً
بَنَهَكَ ذِي قُرْبَى وَلَا بِحَقْلَدٍ^(٣)
سِوَى رُبْعٍ لَمْ يَأْتِ فِيهِ تَخَافَةٌ
وَلَا رَهَقًا مِنْ عَائِدٍ مُتَهَوِّدٍ^(٤)
يَطِيبُ لَهُ أَوْ افْتِرَاصَ بِسَيْفِهِ
عَلَى دَهْشٍ فِي عَارِضٍ مُتَوَقِّدٍ^(٥)

ألسـت ترى أن زهيراُ في هذه الأبيات ينعت بمدوحه بالعديد من
النعوت الحسية والمعنوية وكأن هـرماً تتجسد فيه كل معاني البطولة
والشجاعة والبأس والكرم والنجدة وحماية الضعيف وإغاثة
الملهوف وإيواء الطريد، وهـرم مع كل ذلك غير بخيل وغير طماع
وغير جبان لا يمكن أن يفر من مواجهة الأعداء، ويحمل عن أبناء
عشيرته كل ما يصيبهم من أثقال الحياة وتبعات الأعداء.

(١) - الطلق: ظاهر الفضل، المعطاء. المبرز: السابق. مجلد: مضروب بالسياط.

(٢) - عفوهُ: ما جاء منه دون كد وإجـهاد.

(٣) - النهكة: النقص والإضرار. الحقـلد: البخيل.

(٤) - الرهق: الظلم. العائد: الملتجئ. المتهود: المظمن، الساكن إليه.

(٥) - الإفتراص: الضرب والقطع. الدهش: العجلة. العارض: هنا أراد به
الجيش تشبيهاً بالسحابة المعترضة.

ولنقرأ قصيدة زهير اللامية التي يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر المري، التي مطلعها:

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ لَيْلَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ
وَعُرِّي أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَزَّاجِلُهُ
إلى أن نصل إلى هذه الأبيات:

وَأَبْيَضَ فَيَاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ
عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغِبُّ فَوَاضِلُهُ^(١)
بَكَرْتُ عَلَيْهِ غُدُوَّةَ فَرَائِثِهِ
قُعُوداً لَدَيْهِ بِالصُّرِيمِ عَوَازِلُهُ^(٢)
يَفْدِيَنَّهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلْمُنُهُ
وَأَعْيَا فَمَا يَذْرِيْنَ آيْنَ نَحَابِلُهُ^(٣)
فَأَقْصَرْنَ مِنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مَرْزَأٍ
عَزُومٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ^(٤)
أَخِي ثِقَةٍ لَا تُتْلَفُ الْخَمْرُ مَالُهُ
ولكنه قد يهلكُ المال نائلُهُ^(٥)

(١) - الأبيض: كناية عن النقاء. الفياض الكثير العطاء. المعتفون: طالِبو المعروف. تغب: تنقطع.

(٢) - الصريم: مكان رملي. العواذل: اللاتمون.

(٣) - أعى: أعجز. المخائل: أماكن الخداع من الرجل. حتل: خدع.

(٤) - أقصرن: كففن. المرزأ: المصاب بمصيبة أو رزية.

(٥) - أخى ثقة: يوثق بما عنده من الخير. النائل: العطاء.

تراه إذا ما جئته متهللاً

كأنك تعطيه الذي أنت سائله^(١)

بعد القراءة الممعنة لهذه الأبيات، نرى أن حصن بن حذيفة نقى أبيض لا تنقطع عطاياه عن طالبيها لأنه كريم كالغمام، مهلك للمال ومبذر فيه، فهو عندما وصل إليه الشاعر وجده قاعداً وحوله لاثموه وقد أعياهم أمر هذا التبذير والإسراف في المال، لأن الممدوح إن عزم على تنفيذ أمر جليل عظيم فلا بد من أن هذا الأمر حاصل لا محالة. فلذلك نرى أن أولئك اللائمات يفدينه بأنفسهن. . . وعندما لا يجدن من ذلك الإسراف بداً فيكففن عن اللوم والعدل لأنه لا ينفق المال إلا في سبيل الأمور العظيمة التي من شأنها أن ترفع من قيمة الإنسان وتعلي من مقامه. فلهذا كله ترى وجهه يطفح بشراً ويتهلل إشراقاً وخصوصاً إذا ما جئته لتطلب حاجة منه لأنه يعتبر أن طلب الأمر من السيد الكريم إعطاؤه إياه، فلذلك أصبح حصن موضع ثقة الناس ومحط آمالهم. كما أنه فصيح قوي الحجة بالغ البرهان، سليم الخلق شديد الصفح متفضل على الضعيف المغلوب بما تتصف به نفسه من الحلم:

دَفَعْتَ بِمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ صَائِبَ

إِذَا مَا أَضَلَّ النَّاظِقِينَ مَفَاصِلَهُ^(٢)

(١) - المتهلل: طلق الوجه مشرقه.

(٢) - أراد بهذا البيت: أنه إذا لم يهتد الناطقون لمفاصل الكلام فالممدوح مهتد إليها.

وَذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ
 مُصِيبٌ، فَمَا يُلِمُّ بِهِ فَهُوَ قَائِلُهُ^(١)
 عَبَاتٌ لَهُ جِلْمًا وَاتَّكَرَفَتْ غَيْرُهُ
 وَأَعْرَضَتْ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ^(٢)
 كيف لا يكون حصن كذلك وهو يتمي إلى والده حذيفة وجده
 بدر وكلاهما لا يمكن أن يضارعهما أحد من الناس مهما سمت
 مكانته وعلت.

وإضافة إلى ذلك فحصن بطل فارس يأبى الضيم، لا ينام على
 مكروه وخصوصاً عندما انتصر على النعمان الغساني الذي يصرص
 على أنيابه من الغيظ وهو يستل سيوفه ويحتمي وراءها متدرعاً بها
 وهي كالحصون:

حُذَيْفَةُ يَنْمِيهِ وَبَدْرٌ كِلَاهُمَا
 إِلَى بَاذِخٍ يَلْعُو عَلَى مَنْ يَطَاوِلُهُ^(٣)
 وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
 لِانْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرِ يُجَاوِلُهُ
 أَبِي الضَّيْمِ وَالنَّعْمَانُ يَحْرِقُ نَابِيَهُ
 عَلَيْهِ فَأَفْضَى وَالسُّيُوفُ مَعَاقِلُهُ^(٤)

-
- (١) - الخطل: الخطأ في القول. ما يلزم: ما يحيط.
 (٢) - عَبَاتٌ لَهُ جِلْمًا: أراد حليت عليه وصفت عنه وقد بدت لك معاييه.
 (٣) - حذيفة: أبو الممدوح. بدر: جده. الباذخ: العالي. وأراد به الشرف.
 (٤) - يحرق نابه: يصرفه من الغيظ. أفضى: صار. معاقله: حصونه. أبي الضيم:
 رفض الذل.

فلو حاولت معي أن تجري مقارنة بين ممدوح زهير في هذه القصيدة اللامية وهو حصن بن حذيفة ، وبين ممدوحه هرم بن سنان في قصيدته الدالية لرأيت أن زهيراً صنّاع ماهر حاذق لا يحوجك إلا أن تقرأ وتستزيد لأنك تجد سهولة لا تعنت فيها، سيما، وأنت تستعرض خصال الكريم المتوارثة. فمن صفات هرم مثلاً أنه تقى نقى ناصع الإشراق كما في قوله :

تقى نقى لم يكثر غنيمة
بنهكة ذي قربي ولا بحقلد

وحصن كذلك أبيض فياض كريم كالطر:
وأبيض فياض ، يده غمامة
على مُغتفيه ما تُغِبُّ فَوَاضِلُهُ

فكما أن هرمًا كريم وكل همه من الغنائم أن لا ينقص على ذوي القربى حقهم لأنه جواد وليس ببخيل وهو كذلك يقول زهير:
أليس بفياض يده غمامة

ثمّال اليتامى في السنين محمّد
وحصن مثل هرم جواد كريم يده غمامة تدر على الطالبين. فوجه الشبه هنا قائم بين الممدوحين للتأكيد على أن العربي كان محباً لهذه الخصال التي خلدها زهير في شعره فأحبه الناس وأكرموه، دراسة وقراءة وعناية، لأن شعره يحمل في طياته احتراماً خالصاً للمثل وسعيًا دائبًا للحياة السامية.

ولو تتبعنا شعر زهير لرأيناه يثبت في ممدوحه كل ما فيه من الصفات الطيبة والخصال الحميدة، بمنطق صادق لا تشوبه شائبة وبأسلوب سهل المنال ليس فيه التواء ولا تعنت حتى لكأنك معه أمام نبع سيال تتال منه المعاني انشياً لا صعوبة فيها ولا تعقيد، اللهم ما كان قد بعدت الهوة الزمنية بيننا وبينه فنجد أنفسنا أحياناً أننا بحاجة إلى استعمال المعاجم اللغوية؛ وهذا الأمر ليس بمعيّب لأن الإنسان العربي مهما بلغت ثقافته اللغوية وإحاطته بها فإنه سيجد لزماً عليه استعمال المعجم إذ لا كمال إلا لله.

أما زهير في قصيدتيه السابقتين فقد عمد إلى إبراز الصفات الفردية في مدحه لبطلية هرم بن سنان وحصن بن حذيفة اللذين كادت أن تكون أوصافهما وشمائلهما واحدة في اللفظ وفي الصورة معاً. وأما زهير في قصيدته التي مطلعها:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو

وأقفر عن سلمى التعانق فالثقل

فإنه يعمد فيها إلى أن يمدح جماعة غطفان مدحاً جماعياً إذ يقول:

لَأَرْتَجِلَنَّ بِالْفَجْرِ ثُمَّ لَأَذَابَنَّ

إلى الليل إلا أن يُعَرِّجَنِي طِفْلٌ^(١)

(١) - آداب: أجَدَّ. يعرجني: يجسني. طفل: أراد أن ناقتة وضعت طفلاً منعه عن السير.

إلى مَغْشَرٍ لَمْ يُورَثِ الثَّوَمَ جَدُّهُمْ
 أَصَاغِرُهُمْ، وَكُلُّ فَحْلٍ لَهُ نَجْلٌ^(١)
 تَرَبُّصٌ فَإِنْ تَقَوَّيَ الْمُرُورَاتُ مِنْهُمْ
 وَدَارَاتُهَا لَا تَقَوَّيَ مِنْهُمْ إِذَا نَجَلُ^(٢)
 فَإِنْ تَقَوَّيَا مِنْهُمْ فَإِنْ مُحْجَرًا
 وَجَزَعُ الْحِصَا مِنْهُمْ إِذَا قَلَّ مَا يَخْلُو^(٣)
 إِذَا فَرَعُوا طَارُوا إِلَى مُسْتَغِيثِهِمْ
 طَوَالَ الرَّمَاخِ لَا ضِعَافٌ وَلَا عُزْلُ^(٤)
 وَإِنْ يُقْتَلُوا فَيُسْتَفَى بِدِمَائِهِمْ
 وَكَانُوا قَدِيمًا مِنْ مَنَايَاهُمْ الْقَتْلُ^(٥)

ألا ترى مصداقية ما نقول، من خلال استخدام زهير لضمير الجماعة في أن جماعة غطفان قد ورثوا المجد عن جدهم الكبير غطفان؟ وهم بالتالي أنجاله جميعاً. والشاعر في هذه القصيدة يحدد لنا العلاقة التي كانت قائمة بينه وبينهم ذاكراً أهم خصائصهم إذ أنهم يَهْبُونَ لنجدة المستغيث وهم طوال الرماخ، كناية على أنهم طوال،

(١) - النجل: النسل، الولد.

(٢) - تربص: تلبث لا تسرع. تقوي: تغفر. المورورات: أرض بعينها. نجل: اسم أرض.

(٣) - المحجر وجزع الحسا: مكانان. الجزع: منعطف الوادي الحسا: ماء رفع منه الرمل.

(٤) - فرعوا: أغاثوا مستصرخاً، انجدو. العزل: لا سلاح معهم.

(٥) - أي أنهم أشرف وقتلهم يعتد لذلك بقتلهم وينال منهم ثاره.

فباعهم في الحرب طويل لتأكيد النضر على الأعداء . وأما إذا قُتلوا فقاتلوهم يفتخرون بهذا القتل لهم تشفياً منهم وإدراكاً لشارهم عندهم . وهذا من باب الاعتراف بقوة الخصم لتأكيد قوة الممدوح الذي ما كان قتله وموته في ساحات الوغى إلا أمنية من أمنياته . إذ كيف يموتون على غير ذلك وهم ليسوا بجبناء . ثم يستمر زهير في مدح غطفان في أنهم نجديون وفتيان صدق وموضع الرضى والعدل إذا ما تنازعت الأقوام ، كونهم ثقات عدولاً . كيف لا وهم فخر الآباء والأجداد لأنهم من معد ، ولهم الفضل والعطاء في أقوامهم وخصوصاً هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذان تحملا ديات القتلى في عبس وذبيان وأثبتا دعائم السلم بين المتحاربين بعد أن استمرت الحرب عقوداً .

أولسنا نرى أن زهيراً في هذه القطعة واحد من أولئك الذين يدعون إلى السلم بين الناس إذ لا شيء عنده أجمل من أن يعيش الإنسان آمناً في أرضه حيث يعم الخير والاستقرار وينصرف التفكير البشري ، عندها ، نحو الإبداع في كل ما يعطي . وزهير في خلال ذلك إذ يصف الحياة المجدة وهي في قلق مستمر تدفع بالناس إلى الحاجة والعوز إذا ما استمرت الحروب على الأرض الواحدة . فكيف تحلو الحياة وتسمو إذا أجذبت النفوس كما تجذب أرض الصحرا؟ فمن يجد الناس عندها؟ وهل يكون غير ممدوح زهير وهم عنده غاية من يقصده المعتفون والطالبون والمستغيثون والمستجدون واليتامى؟

ولنتظر إلى زهير في قصيدته الرائية في مدح هرم فماذا نرى؟ :

دَعْ ذَا وَعْدَ الْقَوْلِ فِي هَرَمٍ
خَيْرَ الْبُدَاةِ وَسَيِّدِ الْحَضَرِ^(١)
وَلِنِعْمَ حَشَوُ الدَّرْعِ أَنْتَ إِذَا
دُعِيتَ نَزَالَ وَلَجٌ فِي الدُّعْرِ^(٢)
حَدِبٌ عَلَى الْمَوْتَى الضَّرِيكَ إِذَا
نَابَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدُّهْرِ^(٣)
وَيَقِيكَ مَا وَقَى الْأَكَارِمَ مِنْ
حُوبٍ تُسَبُّ بِهِ وَمِنْ غَدْرِ^(٤)
فَلَأَنْتَ تَقْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضُ
الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا تَقْرِي^(٥)
وَالسُّرُّ دُونَ الْفَاجِشَاتِ وَمَا
يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ بَسْرٍ^(٦)
أُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا عَلِمْتُ وَمَا
سَلَفْتُ فِي النُّجَدَاتِ وَالذُّكْرِ^(٧)

(١) - دع ما أنت فيه من وصف الديار. عد القول: أصرف. البداة: البدو.

(٢) - دعيت نزال: تداعى القوم بالقتال. لج في الدعر: وتابع في الفرع.

(٣) - الحدب: المتعطف، المشفق. الضريك: من يضر بهم أو يفقر.

(٤) - الحوب: الإثم.

(٥) - تقري: تقطع. ما خلقت: ما قدرت.

(٦) - يعني: أنه لا ستر بينه وبين الفاجشات.

(٧) - أثني عليك: أمدحك بما علمت منك.

نرى أن هريماً رجل شجاع يخوض خضم المعارك، كريم إذا ما أحس أن الناس بمسغبة أو جوع، وهو مع هذا ليس بغدار ولا ينزلق في مهاوي الرذيلة والإثم، وهو صادق العزم ولا يرده عن فعل الخير راد ولا ستر وإغما لا تكون الستائر إلا لتحجز بينه وبين الفواحش... فهرم في شعر زهير مثال الرجل الذي تتقد عزيمته بحب الخير ويعتمر قلبه على إغاثة الملهوف وإنجاد الضعفاء. فنراه يقول في قصيدته القافية:

قَدْ جَعَلَ الْمُعْتَفُونَ فِي هَرِمٍ
وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقاً^(١)
إِنْ تَلَقَّ يَوْماً عَلَى عِلَاتِهِ هَرِماً
تَلَقَّ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقاً^(٢)
لَيْتَ بَعِثَ يَضْطَاذُ الرِّجَالَ إِذَا
مَا كَذَبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقاً^(٣)
يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا اطْعَنُوا
ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا اعْتَنَقَا^(٤)
هَذَا وَلَيْسَ كَمَنْ يَغِيَا بِخَطِيئِهِ
وَسَطَ النَّدِيِّ إِذَا مَا نَاطَقَ نَطَقاً^(٥)

(١) - المعتفون: الطالبون.

(٢) - علاته: على ما هو عليه.

(٣) - الليث: الأسد. عثر: اسم مكان معين.

(٤) - يطعن: يضرب بالسيف. ارتموا: تراشقوا بالنبل. اعتنق: التزم.

(٥) - الندي: مجلس القوم.

لَوْ نَالْ حَيٍّ مِنَ الدُّنْيَا يَنْزِلَ

وَسَطَ السَّمَاءِ لَنَأْتِ كَفُّهُ الْأَفْقَا

فهرمُ هنا فياض الكرم الذي جعل المبتغين والسائلين
يسعون إليه من كل حدب وصوب وقد سلكوا في سبيل ذلك كل
الطرق، فاجزل لهم العطاء حتى في أوقات ضيقه . وهو إلى جانب
ذلك سمح المخالقة ورُبي على الكرم . وهو شجاع باسل صادق
العزم حتى انه لَيَتَفَوَّقَهُ وجراته يؤكد النصر على عدوه إذا ما تلاكأ
الأسد عن اقتناص فريسته ، وفي عملية الانتصار تلك يستعمل
السلاح المناسب حتى يحقق النصر . أما إذا دعا ناطق للسلم فهو
أول الناطقين بها والساعين إليها والمحققين لها ، ولا يمكن أن
يستعصي عليه أمر مهما طال وعلا إلا وينال منه .

وتؤكد هذه المختارات ، أن زهيراً كان على دراية تامة وإحاطة
شاملة بمعجم لغة الضاد مما ساعده على أن يكون قادراً على أن
يصيغ شعره بتراكيب بسيطة بعيدة عن التعقيد والغلو معتمداً في
ذلك على ذوقه الفني وإحساسه المرفه بحقيقة الصور والمعاني
ومدلولات الكلام الدقيقة حتى استطاع أن يقول في الرجل كل ما
هو فيه ؛ ومن هنا تميز شعره بالصدق وهو «يمثل شخصية البدوي
الحقيقي الذي يحيط كلامه بالصدق والبساطة ، وإذا أحسن أن
صفة من الصفات أو معنى من المعاني بأنه يكاد أن يخرج عن حدّه
أحاطه بما يجعل قوله قولاً مقبولاً فيقدم لفظة «لو» ونحوها حتى لا
يتجاوز القصد ، كما نرى في قوله يصف هرماً وأجاده :

لو نالَ حيٌّ من الدنيا بمكرمةٍ . .
أَفَقَ السَّمَاءَ لَنَالَتْ كَفُّهُ الأفقا

وقوله :

لو كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ
كُنْتَ الْمُنُورَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ

فهو لا يطلق القول إطلاقاً . . بل يجعله في حيز «لو» حتى
يخرج من باب المبالغة الذي أوْشك على الدخول فيه، ولم يقل في
الرجل إلا ما هو فيه فتميّزت صورته بالصدق والبساطة .

الرثاء في شعر زهير بن أبي سلمى

الرثاء، كما هو معروف، هو أن ينسب الشاعر إلى الميت السمائل الطيبة والخصال الحميدة التي من شأنها أن ترفع من قيمة المرنثي أمام الأحياء. فالرثاء بهذا المعنى ما هو إلا مدح للمراحل يُنعتُ به بعد موته.

ولو تتبعنا شعر زهير في أمر هذا النوع من الشعر فلم نر أنه ترك قصائد بعينها تفرد بالرثاء وإنما لا نرى إلا مقطعين قصيرين؛ الأول في رثاء، والد هرم، سنان بن أبي حارثة المري. والثاني في رثاء ولده سالم. وقصة رثائه في المقطع الأول تتلخص في أن سنان، أبا هرم، «خرج في الليل فأبْعَدَ إلى أن ضل عن سبيله فهام طول ليلته حتى سقط فمات، فتبع قومه أثره فوجدوه ميتاً فبرثاه زهير بقوله»:

إِنَّ الرُّزْيَةَ لَا رَزِيَّةَ مِثْلُهَا
مَا تَبْتَغِي غُطْفَانُ يَوْمَ أَضَلَّتْ^(١)

(١) - الرزية: المصيبة. أضلت: أي ذهب شيء عنها بعد أن كان في يدها.

إِنْ الرِّكَابَ لَتَبْتَغِي ذَا مِرَّةٍ
 بِجُنُوبِ نَخْلٍ إِذِ الشُّهُورُ أَحَلَّتِ (١)
 يَنْعَوْنَ خَيْرَ النَّاسِ عِنْدَ شَدِيدَةٍ
 عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُ هُنَاكَ وَجَلَّتِ
 وَمَدْفَعٍ ذَاقَ الْمَوَانَ مُلْعَنٍ
 رَاخِيَتْ عُقْدَةُ حَبْلِهِ فَاِنْحَلَّتِ (٢)
 وَلَيَنْعَمَ حَشِرُ الدُّرْعِ أَنْتَ لَنَا إِذَا
 نَهَلْتَ مِنَ الْعَلَقِ الرَّمَا حُ وَعَلَّتِ (٣)

نرى في هذا المقطع أن زهيراً يذكر عظم المصيبة التي حلت على
 هرم خاصة وعلى غطفان عامة إذ أعلن الناعون وفاة خير الناس،
 سنان أبي هرم، فكانت خسارتهم عظيمة ومصيبتهم جليلة لأن
 سنان أهل للعديد من الخصال الطيبة بحذبه على الفقراء
 والمحتاجين الذين لا يقوون على إطعام أنفسهم وهم لا حول لهم
 ولا طول فوجدوا فيه خير مُفْرَجٍ للكرب والغم وقد رد إليهم
 كرامتهم بعد أن كانوا ملعنين في أقوامهم. وسنان، إضافة إلى
 كرمه، فارس شجاع وسند للقبيلة إذا ما انهالت سيوف الأعداء
 على رجالها ونهلت من دمائهم فيجدون فيه خير مخلص للقبيلة

(١) - الركاب: الأبل. ذا مرة: ذا عقل. نخل: موضع. جنوب: نواح.
 (٢) - المدفع: الفقير الذي لا قيمة له. الملعن: الذي يكثر الناس في لعنة الخساسة.
 (٣) - نهلت: شربت. العلق: الدم.

ومنقذ لشرفها، وهو بهذا خير من يضع على جسمه درعاً ويحمل سيفاً.

أما المقطع الثاني فهو في رثاء ولده سالم بن زهير. وقصة سالم طريفة. إذ أن امرأة من العرب كانت بجوار ماء التثاء فمر سالم على فرس وعليه بردتان جميلتان أهداهما إليه زهير والده. فقالت المرأة على الفور ما رأيت كالיום قط رجلاً ولا بردتين ولا فرساً، فعثرت به الفرس فاندقت عنقه وعنق الفرس وانشقت البردتان فقال زهير يرثيه بقوله:

رَأَتْ رَجُلًا لَأَقَى مِنَ الْعَيْشِ غِبْطَةً
وَأَخْطَاهُ فِيهَا الْأُمُورُ الْعِظَائِمُ
وَسَبَّ لَهُ فِيهَا بَنُونَ وَتُوبِعَتْ
سَلَامَةً أَعْوَامٍ لَهُ وَغَنَائِمِ
فَأَصْبَحَ مَحْبُورًا يُنْظَرُ حَوْلَهُ
تَغْبِطُهُ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ دَائِمُ
وَعِصْدِي مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ
فَقُلْتُ: تَعْلَمُ إِنَّمَا أَنْتَ حَالِمُ
لَعَلَّكَ يَوْمًا أَنْ تُرَاعَ بِفَاجِعِ
كَمَا رَاعَنِي يَوْمَ النُّتَاءِ سَالِمُ

وزهير في هذه الأبيات عندما نزلت عليه هذه الفاجعة المؤلمة وأحس بوقعها فإنه تحملها متصبراً وألم بها بشكل عظيم كونه يعلم

من الأيام ما لا يعلمه الآخرون، فأحب أن يوجه للمتمادين في أمور الحياة نصيحة وهي أن يعدوا لكل أمر عدته حتى لا تفزعهم الفواجع وترعبهم وتروعهم كما فجعت زهيراً بولده عندما سقط عن فرسه ميتاً يوم التتاء.

إننا في هذه الأبيات نرى أن عاطفة زهير تجاه ولده كاب كانت عاطفة هادئة متزنة موجهة تدل على تمكن هذا الرجل، زهير، من السيطرة على أعصابه بشكل نراه فيه يعظ الناس ويرشدهم بدلاً من أن يأتيه الناس مؤاسين وهم يطيبون خاطره؛ وهذا الأمر يعود إلى واقعية زهير وشدة تعقله وترصنه واتزانه وصبره وثباته أمام نكبات الدهر ونوازله.

وهل في هذا المجال أجمل من هذه الصورة التي يقف فيها صاحبها يدعو الناس إلى الاستعداد والتهيؤ لما قد يفاجأون به من مصائب الدهر في حين أن المصيبة في داره واقعة؟ وهل ترى أجمل من هذا التجريد أمام نفسه ليخفف من وقع الفاجعة عليها.

الهجاء في شعر زهير

أما زهير في الهجاء، فلم يفرد له باباً خاصاً به، كما لم يفرد لغيره من الفنون والأغراض، لأن طبيعة حياته الخاصة لم تفرض عليه ذلك، خصوصاً، وأنه قد ارتبط بآل غطفان وعلى رأسهم هرم بن سنان وحصن بن حذيفة المري. ولكن هذا لا يمنع من أن تصادف زهيراً في حياته أموراً مهمة قد دفعته إلى هجاء مسيبي تلك الأمور. فمن ذلك عندما أغار الحارث بن ورقاء وهو أحد بني أسد، على قبيلة زهير مزينة، وأخذ فيما أخذه، غلام زهير يساراً وأموالاً لزهير نفسه؛ الأمر الذي أفلت عقال لسان زهير في الهجاء حيث هجا الحارث بن ورقاء هجاء يميل فيه زهير إلى التهديد أكثر مما يميل إلى الهجاء المر المقذع الذي يهتك الأعراض وفي ذلك يقول زهير:

يا حارِ لا أُرْمِنُ مِنْكُمْ بِدَاهِيَةٍ
لَمْ يَلْقَهَا سُوقَةٌ قَبْلِي وَلَا مَلِكٌ^(١)
أُرْدُدْ يساراً وَلَا تَغْتَفِ عَلَيْهِ وَلَا
تَمْعَكَ بِعَرَضِكَ إِنْ الْغَايِرَ الْمِعْكَ^(٢)

(١) - يا حارِ: مرخم يا حارث.

(٢) - تمعك: تماطل.

وَلَا تَكُونَنَّ كَأَقْوَامٍ عَلِمْتُهُمْ
يَلُودُونَ مَا عِنْدَهُ حَتَّى إِذَا نُهَكُوا^(١)
طَابَتْ نَفْسُهُمْ عَنْ حَقِّ خَصْمِهِمْ
خَجَافَةُ الشَّرِّ فَارْتَدُّوا لِمَا تَرَكُوا
تَعْلَمَنَّ ! هَا، لَعَمْرُ اللَّهِ، ذَا قَسَمًا
فَاقْدِرْ بِذَرْعِكَ وَانْظُرْ أَيْنَ تَسْلِكُ^(٢)
لَيْتَنِي حَلَلْتُ بِجَوْرِ بَنِي أَسَدٍ
فِي دِينِ عَمْرُو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكَ^(٣)
لِيَايَتِيكَ مِنِّي مَنْطِقٌ قَذَعُ
بَاقٍ كَمَا دَنَسَ الْقُبُطِيَّةُ الْوَدَكَ^(٤)
فزهير في هذه الأبيات يتوعد الحارث وتهذهه مقسماً إذا ما
عامل غلامه بالعنف ولم يردده إليه فإنه سينزل فيه أقذع الكلام
وأبشعه حتى ليصبح ذكر بني أسد كدنس تلك الثياب البيض التي
تتصاعد منها رائحة الدهن التّن وسيبقى هذا الهجاء والذم خالداً
فيهم على الزمن.

ولما أحس الحارث بجدية تهديد زهير أعاد إليه غلامه وأمواله

(١) - يلودون: يطلون. نهكوا: شتموا.

(٢) - فاقدر بذرعك: أي بخطوك. تسلك: حيث يمكن أن ينال منك.

(٣) - دين عمرو: دين عمرو بن هند ملك العراق في طاعته. فدك: اسم أرض.

(٤) - القذع: القبيح. باق: خالد. القبطية: الثياب البيض. الودك: الدهن التّن.

دون أن يستجيب الحارث إلى نصيحة قومه الذين دعوه إلى قتل الغلام يسار، ليروا ما سيحصل من أمر زهير ، الأمر الذي أغاظ زهيراً كثيراً فهجا بني أسد هجاءً مقدعاً فعلاً لما يحمله من الكلمات النابية والصفات المفرضة ولا مجال إلى ذكره هنا . علماً بأن زهيراً ، وفاء منه للحارث الذي رد إليه أمواله وغلّامه ، قد مدحه مدحاً لا يقل أهمية عن مدح هريم بن سنان وحصن بن حذيفة بن بدر .

وأما آل حصن الذين نزل فيهم رجل من غطفان فأكرموه فأحسنوا جواره . وكان هذا الرجل كثير المقامرة ، فنهوه مراراً إلى أن رهن زوجته وابنه فمنعهما عنه ولم يردوهما إليه كما فعلوا في المرات السابقة لأنه لم ينته عن المقامرة . فشكا ذلك الرجل أمره إلى زهير ، فتأثر زهير بهذه القصة وهجا آل حصن وذلك دون أن يتحقق من صدق الرجل الغطفاني أو كذبه ، فندم فيما بعد ندماً عظيماً لتسرعه وعدم تحقيقه . وفي آل حصن يقول زهير هاجياً :

وما أدري وَلَسْتُ إِنْ خَالَ أَدْرِي

أَقُومُ آلَ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءً

فإن تَكُنْ النِّسَاءُ مُحَبَّاتٍ

فَنُحِّقْ لِكُلِّ مَحْصَنَةٍ هِدَاءً^(١)

وَلَمْ أَرْ مَغْشَرًا أَسْرُوا هِدِيًّا

وَلَمْ أَرْ جَارَ بَيْتٍ يُسْتَبَاءُ^(٢)

(١) - المحصنة: ذات الزوج . الهداء: الزواج .

(٢) - الهدى: الرجل ذو الحرمة وهو المستجير بالقوم . يستباء: تؤخذ زوجته .

وَجَارُ الْبَيْتِ وَالرَّجُلُ الْمُنَادِي
أَمَامَ الْجَمْعِ عَفْدُ مَا مَوَاءُ^(١)

وزهير في هذه القصيدة يندد بصفات آل حصن المعنوية حيث
يتعرض لهم بالسخرية لأنهم نكثوا عهود الجار مع أن الجار من
خلال هذه العهود يتساوى حظاً وحقاً مع عموم أفراد القبيلة.

(١) - المنادي : المجالس .

الحكمة في شعر زهير بن أبي سلمى

لم نر أن زهيراً، في شعره، قد أفرد للحكمة باباً خاصاً به، ولكن هذه الحكمة عنده لم تكن عفوَ الخاطر جاءنا بها للتفكه والتندر، وهو المشهود له بالرصانة والاتزان، وإنما كانت نتيجة تعمل ومعاناة كان يعيشهما الشاعر ويبتهما، في ثنايا شعره، عندما متاح له فرصة التحدث عن أمر جليل أو مدح رجل عظيم... فهنا يكون لزاماً عليه أن يضمن هذه الحكمة شعره مجسداً أبعادها ومعانيها علّه يجد في ممدوحه خير منفذ لها على الأرض، أو لعله يجد في الناس من يستلهم تلك المعاني والأبعاد فيعمل بين الناس على تكريسها وبث محتواها حتى تغمر السعادة الإنسان.

وكيف لا يتجه زهير إلى الحكمة، ويضمنها شعره، وقد عركته الحياة وصقلت ذهنه التجارب وغما عقله على التمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، والحب والكراهة، والحرب والسلام... وتسامت إرادته وهي تتطلع إلى كل ما يؤنس ويخصب... وكيف لا يكون كذلك وقد ذرف عمره على الثمانين فأسمعه

يقول بعد أن كاد السأم أن يأخذ منه :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش

ثمانين حولاً لا أباً لك يسأم

وأعلم علم اليوم والامس قبله

ولكنني عن علم ما في غد عم

رأيت المنايا خبط عشواء من تُصب

تحتة ومن تخطيء يعمر فيهرم

فماذا ترى من خلال هذه الأبيات؟ ألا ترى أن سني عمره قد جعلته يميل إلى التشاؤم الواضح وهو لا يعلم من حياته إلا ما تمّ في أمسه وحاضره، وأما ما يجنبه له القدر في غده فهو مظلم مجهول أسود ولا يمكنه أن يتنبأ عنه بأي شيء؟ وهنا تراه، وكأنه قد استسلم لليأس أمام المنايا التي تسير ككناقة عشواء ولا يموت إلا من يقع تحت أخفافها وأما من ينجو منها فتتمتد به العمر حتى يقتله السأم واليأس والعجز؟ وقد يصل إلى أذله .

ومن تكون هذه حاله من السأم واليأس والتشاؤم اليس حريّاً به أن ينطلق لسانه من عقاله يعظ الناس ويرشدهم إلى أمور حياتهم من خلال استخلاصه لعبير الماضي وصروفه؟ فيجد بذلك نفسه مدفوعاً إلى الدعوة إلى السلم ونبذ الحرب كقوله :

ومن يعص أطراف الزّجاج فإنه

يطيع العوالي رُكبت كل لهزم

ليؤكد للمتقاتلين من عبس وذبيان ، وللأجيال المقبلة فيما بعد ،
بأن من لا ينصاع إلى نبذ آلات الحرب فهو لا محالة واقع في
ويلاتها .

وأما قوله :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم
فماذا تراه يقول للإنسان الذي لم يدخل الحياة من بابها
الواسع فيسبر أغوارها ويدرك أبعادها غير قوله هذا ، وما غايته من
ذلك إلا ليشد عزائم الناس كي يعملوا باستمرار على التدريب على
تنمية مواهبهم ومداركهم حتى لا يصبحوا لقمة لينة أمام نكبات
الدهر وصروف الأيام .

وأما أولئك الذين يرون الموت يطاردهم فيتمادون في الهروب ،
فلم ينسهم زهير إذ يقول فيهم :

ومن هاب أسباب المنايا ينلّنه
وإن يرق أسباب السماء بسلم
وأما الذين يحاولون إخفاء نقائصهم على الناس ، وهم
يتسترون وراء أصابعهم فيقول لهم :

ومهما تكن عند امرئ من خليفة
فإن خالها تخفى على الناس تعلم

فهذه النقائص والخلال السيئة لا بد لها من أن تعلم مهما طال
الزمان على إخفائها خصوصاً وإن الطريق الطويل كشاف
للعيوب.

وأما الذين يلحفون في الطلب فينالون . . . فأمرهم لن يطول
لأن لكل شيء نهاية :

سألنا فأعطينم وعُذنا وعُذتُم

ومن أكثر التسأل يوماً سيُحرم.

فأللجاجة والإلحاف أمر ممض ومزعج فلا يجوز التماذي بهما
والاندفاع وراءهما لأنه لا يجوز لنا أن نشرب البحر حتى نحس بطعم
الملوحة.

وإذا جئنا بطلب النصف من زهير فنراه يقول :

فإن الحق مقطعه ثلاث

يمين أو نِفَار أو جلاء

فقد عد القدماء زهيراً بهذا البيت بقاضي الشعراء وفي طبيعة
هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث أعجب من صحة
التقسيم في هذا البيت فقال : «لو أدركته [زهيراً] لوليت القضاة
لحسن معرفته ودقة حكمه» .

أما امتداد العمر في حياة زهير فإنه كان باعثاً له على كثرة التأمل
والاستبصار الأمر الذي جعل الرواة ينسبون إليه أنه رأى، فيما يرى

النائم، نفسه يقترب من السماء مرتين ويرد، فاستنتج عندها أن
أمراً من السماء سينزل فأوصى ولديه كعباً وبجيراً أن يفتشا عن
صاحبه ويتبعاه إذا وجداه. ألا تدل هذه الرواية، إن صحت، أن
زهيراً كان كثير التفكير في خلق السموات والأرض فوجد نفسه
مدفوعاً إلى "القول بعد التحقق":

تزود إلى يوم الممات فإنه
ولو كرهته النفس آخر موعد

أو قوله:

فلا تكتنن الله ما في نفوسكم
ليخفى ومهما يكتنن الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم

معلقة زهير بن أبي سلمى

إن المتأمل لمعلقة زهير، لم ير أن زهيراً قد خرج على ما تعارف
عليه الشعراء الجاهليون من تقليد قد شاع عندهم فيما يتعلق ببناء
القصيدة.

فأنت ترى أنه قد بدأ المقطع الأول من المعلقة بطريقة تثير في
نفسك أشجاناً كثيرة تكاد أن تشعر معها بإحساس غريب يجعلك
تقف مع الشاعر لتأمل، وبشيء من الحزن، آثار الحبيبة التي عفا
عليها الزمن أو كاد، وقد أصبحت مرتعاً للظباء والأبقار
الوحشية واطلائها وهي تروح ونحيء باتجاهات مختلفة، وخاصة
أنه عاد تلك الديار بعد أن مضى على زيارته لها عشرون سنة.
وكيف لا تغرب صورة هذه الديار عن مخيلة الشاعر، وهذه السنون
العشرون كفيلة بمحو الكثير من معالم الطبيعة لولا أن بقي على
ظاهرها ما يرمز إلى ساكني تلك الديار من صور ما زالت ماثلة
للعيان فأعادت إلى نفس زهير ما أوشك أن يموت من الأمل بعد أن
راودته الظنون وكاد اليأس أن يقتله مما اضطره إلى أن يخاطب الدار
محياً وكأنه يتصور أهلها وهم ماثلون أمام عينيه فيطلب لهم الصباح
السعيد والحياة الآمنة بسلام دائم:

أَمِنْ أَمْ أَفْنَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ
 بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَلَّمُ (١)
 وَدَارُهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا
 مَرَايِجُ وَشَمٍ فِي نَوَاشِيرِ مِعْصَمٍ (٢)
 بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَهُ
 وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْتَمٍ (٣)
 وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً
 فَلَأَيًّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ (٤)
 أَثَافِي سُفْعًا فِي مُعْرَسٍ مِرْجَلٍ
 وَنُؤْيَا كَجَذْمٍ الْحَوْضِ لَمْ يَتَلَّمُ (٥)
 فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِارْبَعِهَا
 أَلَا أَنْعَمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبِيعُ وَاسْلَمُ (٦)

- (١) - الدمنة: ما اسود من آثار الدار. حومانة الدراج والمتلثم: موضعان.
- (٢) - الرقمتان: حرتان احدهما بالقرب من البصرة والأخرى من المدينة. المراجع جمع المرجوع وهو المعاد. نواشير المعصم: عروقه. والمعصم: موضع السوار.
- (٣) العين: الواسعات العيون كناية عن الأبقار الوحشية. الأرام جمع رم وهو الظبي الأبيض. خلفه: يخلف بعضها بعضاً. الأطلاء: أولاد الظبي أو البقرة الوحشية. مجتم: محط: مكانة الجثوم.
- (٤) - عشرين حجة: عشرين سنة. اللَّي: الجهد، المشقة.
- (٥) - الأثافي: جمع الأثفية: حجارة توضع عليها القدر. المعرس: المنزل من المنزل. المرجل: القدر. النؤي: خندق يحفر حول الخيمة ليجري فيه الماء. الجذم: الأصل.
- (٦) - انعم صباحاً: طيب عيشاً. لربيعها: لسكانيتها.

فهذه الصور، في هذه الأبيات، مألوفة في الشعر الجاهلي كأن يشبه الشاعر آثار الحبيبة بـ « باقي الوشم في ظاهر اليد » على حد قول طرفة بن العبد، أو يصور الدار وهي « تروح عليها الإبل والشاء » أو يستدل عليها من خلال الأحجار السوداء التي كانت توضع عليها المراحل والقصور، أو من خلال القنوات التي تحضر حول الخيمة حتى لا تدخلها المياه . . . فكل هذه الصور الحية مستوحاة من واقع الحياة البدوية التي كانت تربط ماضي زهير بحاضره فتجدد الذكرى في نفسه ويلفه الحزن العميق وهو يتأمل تلك الديار التي عرفها بعد جهد جهيد . وهو بهذا لم يكلفنا الكثير من العناء إذ يكفي بإيراد القليل من الصور بأسلوب سهل رشيق جذاب لينفذ من خلاله إلى عمق التجربة الحسية التي يغنيها في تقصي صوره التي يضعها أمامنا ببساطة موحية وألوان زاهية . فهذه الصور على زهاوتها ونقاوتها ونصاعتها ، فهي إما مفرحة كصورة الأبقار والظباء والأطلاء وهي تتحرك بحرية تامة، ولا يزعجها في ذلك إلا مشاكسة الوحوش المفترسة لها، ففي هذه الصورة تمثيل للحياة البدوية بكل صورها ومعانيها لأنها تذكر الشاعر بأمر أوفى، حبيبته، التي كانت تغمرها الفرحة، قبل ذلك، على ربوع تلك الديار . وهي ، هذه الصور، إما محزنة لما تحمله من علائم البلى والخراب التي إن دلت على شيء فإنما تدل دلالة قاطعة على ظاهرة الموت الفناء والزوال التي تبعث في النفس الإنسانية مزيداً من اللوعة والأسى . . . فزهير لذلك مدعن لصروف الدهر وتقلبات

الأيام لأن حياة كهذه هي في آن معاً مدعاة للتأمل والحيرة، ومن يكن في مثل سنه لا يجد بداً من أن يقتبس من تلك الصروف القاهرة حكماً تخلد على الزمن، فنفسه « نفس الحكيم الذي لا يزدهيه فرح ولا حزن ولا تستخفه عاطفة مهما تكن »، وهو عندما وقف يحیی الدار بعد أن تحقق من معرفتها قد فاضت نفسه بعاطفة جياشة قوية، ولكن هذه العاطفة لم تدفعه إلى التبذل والإسفاف، كما عبرت عن شوق عميق ولكنه لم يدفعه إلى الاستخفاف بتلك العاطفة الحزينة التي لم تدفعها نشوة الطرب إلى الخروج بها عن جادة الرجل المتزن الذي سبر الحياة، وغاصت نفسه في لجتها فبدا وكأنه ممسك زمام النفس فلم يخرج بها عن الطريق المستقيم الذي تأباه الرجولة الحقّة .

وإذا كان شاعرنا قد عرف الدار بعد لأي ومشقة فتصور رحيل الأحبة وأنهن يتحركن تحت سمعه وبصره وهو يتتبع كل حركة من حركاتهن وعلى مدى لا يحول دون مد البصر ولا يزيد عليه، فاسمعه يقول :

تَبَصَّرُ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظُعَائِنِ
تَحْمَلُنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثَمِ^(١)

(١) - الظعائن: جمع ظعينة وهي الراحلة. العلياء: الأماكن العالية. جرثم: ماء بعينه.

- جَعَلْنَا الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزْنَهُ
وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحَلٍّ مُحْرِمٍ^(١)
عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ
وَرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهِةَ الدَّمِ^(٢)
وَوَرَّكُنَ فِي السُّوَيَانِ يعلون مَتْنُهُ
عَلَيْهِنَّ دُلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِمِ^(٣)
بَكْرُنَ بُكُوراً وَاسْتَحَزْنَ بِسُخْرَةٍ
فَهُنَّ لَوَادِي الرُّسِّ كَالْيَدِ لِلْقَمِ^(٤)
وَفِيهِنَّ مَلَهَى لِلْطُّيْفِ وَمَنْظَرٌ
أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ^(٥)
كَأَنَّ فُتَاةَ الْعَيْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
نَزَلْنَ بِهِ حَبِ الْغَنَامِ لَمْ يُحْطَمْ^(٦)

-
- (١) - القنآن: جبل لبني أسد. الحزن: ما غلظ من الأرض وكان مستوياً. المحل: من دخل في أشهر الحلال، والمحرم من دخل في أشهر الحرام أو الحرم.
(٢) - علون: ارتفعن. الأنماط: ما يعرض من صنوف الثياب. العتاق: الكرام.
الكللة: الستر الرقيق. الورد: جمع ورد وهو الأحمر. المشاكهة: المشابهة.
(٣) - السويان: أرض مرتفعة. التوريك: الركوب على الورك. الدل: الفنج.
(٤) - بكرن: سرن باكراً. استحر: سار سحراً. وادي الرس: موضع بعينه.
(٥) - الملهى: مكان اللهو. التنعم: التلذذ بالنعمة. الأنيق الجميل. اللطيف: الحسن.
(٦) - الفئات: ما يتقطع من الشيء وينحت عنه. العين: الصوف المصبوغ. حب الغنأ: غنب الثعلب.

فلما وَرَدْنَ الماءَ زرقاً جماعاً
 وَضَعْنَ عَصِيَّ الحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ (١)
 ظَهَرْنَ مِنَ السُّوْبَانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ
 عَلَى كُلِّ مَبْنِيٍّ مَشِيبٍ وَمُقَامٍ (٢)

أرأيت كيف خاطب زهير خليله وهو يطلب منه التبصر في تتبع
 آثار الأحبة وتنقلاتهن، ورصد الطريق التي سلكنها والأماكن التي
 حللن بها؟ أرأيت وصف سير الطاعنين وهن يتسربلن وقد تركن
 خلفهن قطع الصوف المثور كحبيبات غنب الثعلب الحمراء التي لم
 تحطم بعد؟ أرأيت كيف وصفهن عند ورودهن الماء النمر الصافي
 حيث وضعن عصا الترحال وخيمن؟

ألا ترى معي أن زهيراً في المقطع الأول قد شفه الوجد ولكنه لم
 يضمنه ويتعبه طول التأمل؟ وكيف تراه في المقطع الثاني؟ أألمست تراه
 فناناً حاذقاً إذ أنه تمكن من وضع بصماته على كل أجزاء صورته في
 وصف هؤلاء الأحبة خلال حللن وترحالهن وبدون تكلف منه أو
 إعنات ذهن منك؟ ألا ترى صدق عواطفه في مدى تعلقه الشديد
 بحركات الأحبة الطاعنين حتى توصل إلى الاهتمام بما يتناثر من
 أهداب الهوادج من قطع الصوف، فتات العهن وهو يشبهها

(١) - الزرقاء: شد الصفاء. الجمام: ما اجتمع في الحوض أو في البشر. وضع
 العصي: خيم.

(٢) - الجزع: القطع. القيني: حاجب المهنة والمصلح. القشيب: الجديد. المقام:
 الموسع.

بحبيبات الغنا الحمراء؟ ولعل تعلق الشاعر بفتات العهن إنما يدل على صدق عاطفته نحو من يحب، فهذه الصورة جميلة فعلاً لما تحمله من البواعث النفسية. إضافة إلى البواعث الحسية التي جسدت تلك الصورة حتى باتت رائعة الجمال لدقة وصفها وإيجاز معانيها وبلاغة محتواها؟ حتى أننا نكاد نلمس أن زهيراً كان يتوخى من ذلك أعمال الروية وكد الذهن وشحذ القريحة لأن هناك أمراً مهماً لا يقل شأنًا عن وصفه لديار الأحبة وتتبع دائب حي للظاعنين عنها واللواتي نزحن وبعدن عن عينه منذ أكثر من عشرين حجة، بل هذا الأمر أهم من ذلك الوصف بكثير.

ولأجل ذلك لم نر زهيراً يلجأ إلى وصف راحلته، على عادته في معظم قصائده، حيث يلجأ إلى تشبيهها بالبقرة الوحشية، أو حيث ينصرف إلى وصف عمليات الطرد والصيد وهو يستطرد من فكرة إلى فكرة ومن صورة إلى صورة.

فلماذا يا ترى قد أضرب زهير عن تلك العادة التي جرى عليها شعراء الجاهلية؟

حقاً إن هناك أمراً مهماً قد شغل زهيراً عن تلك العادة في هذه المعلقة.

ألا يحسن أن يكون هذا الأمر الجلل هو ما قام به السيدان الكريمان هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذان استطاعا أن يُزسّيا قواعد السلام بوضعهما حداً للحروب الطاحنة التي

استمرت قروناً بين قبيلة عبس من جهة وبين بني ذبيان من جهة ثانية وهما أصلاً يعودان إلى جد واحد هو غطفان؟

وإذا وقف زهير مقسماً ليعلن على الملا ويهتف بالقم الملا أن هريماً والحارث سيدان لا يجاريان في عملهما الفذ الذي إن ذل على شيء فإنما يدل على ما يتمتعان به من أريحية ونبل وكرم وحلم ومروءة وشجاعة فاسمعه يقول:

يَمِينَا لِنَبْعَمَ السَّيْدَانِ وَجِدْتُمَا
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ^(١)
تَدَارَكْتُمَا عُبْساً وَذُبْيَانٌ بَعْدَمَا
تَفَانَوْا وَذُقُّوْا بَيْنَهُمْ عَطِرٌ مَنُشَمٌ^(٢)
وَقَدْ قَلْتُمَا إِنْ نُذْرِكِ السَّلْمَ وَاسْعَا
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نُسْلَمُ^(٣)
فَاصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ
بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عَقُوقٍ وَمَأْتَمٍ^(٤)

(١) - السحيل: المفتول على قوة واحدة. المبرم: المفتول على قوتين أو أكثر حيث يستعار السحيل للضعيف والمبرم للقوي.

(٢) - التدارك: التلاقي. التفاني: التشارك في الفناء. منشم اسم علم يعمل في العطاراة التي ترش على الموق.

(٣) - السلم: الصلح، يذكر ويؤنث.

(٤) - العقوق: العصيان، وفلان عاق أي غير متج. المأثم: من الإثم وهو الخطأ.

عظيمين في عليا معد هديتهما

ومن يستبح كثرأ من المجد يعظم^(١)

تغفى الكلوم بالثين فأصبحت

ينجمها من ليس فيها بمجرم^(٢)

ينجمها قوم لقوم غرامة

ولم يهريقوا بينهم ملء مخجم^(٣)

تبرز في هذا المقطع صورة السيدين العظيمين، هرم بن سنان والحارث بن عوف، اللذين أبت عزيمتهما ومروءتهما إلا أن يتداركا عبساً وذبيان بعد أن كاد الفناء أن يشملهما فصرخ ذانك السيدان عالياً: السلم. فلإنا إن وضعنا دعائمها نسلم وتسلم بعدنا العشائر كلها. فأمر السلم عندهما عظيم جداً خصوصاً إذا قام به من يتصف بكرم الخلق، قولاً وفعلًا، فكريم الخلق هو الذي يجعل من عمله بلسمًا للجراح لا خنجرًا يزيد الجراح اتساعاً وهولاً. وهرم والحارث هما كريما الخلق فعلاً لأنهما استطاعا أن يبعثا في النفوس الأمل والرجاء فاستباحا بذلك كنوز المجد وجعلها صرحاً لهما مباحاً ولا يلججه إلا من كان في صفهما عملاً وكرماً

(١) - العليا: تأنيث الأعلى. هديتهما: دعا لها بالهدية. الاستباحة: جعل الشيء مباحاً للجميع ولا حرج في تناوله.

(٢) - الكلوم: الجراح. التفعية التسمية، تغفى: تحيى. ينجمها: يعطيها نجوماً. الثين من الإبل: المثات.

(٣) - يهريقه: يسيله. المحجم: آلة الحجامة وهي ما يؤخذ بها اليوم عينة من الدم.

ونبلاً. وكيف لا يكونان كذلك وقد حقنا دماء من تبقى من الرجال
يبدلها المئات من الإبل كديات للقتلى حتى بدت تلك الديات
وكانها النجوم الهوادي، ولم يقبلا بعد ذلك أن يهرق حتى ولو
محجم واحد من الدم بين المتقاتلين.

لقد مدح السيدين فأباح لهما كنوز المجديستدران منها ما يشاءان،
وهما، إلى ذلك، على جانب عظيم من طيب الأرومة وكرم المحتد
وأثالة النسب لأنهما في عليا معد فلا يمكن أن يباريهما أحد من
الخلق. ولم يكن تقديم المدح عبثاً إلا لأن الأمر، الذي جاء به هُرم
والحارث، أمر عظيم لأنه يحمل في طيه دعوى السلم التي كانت
مطمح الناس الأهم، في ذلك العصر، حيث لا شيء أحب إلى
النفوس من تلك الدعوى لأن فيها نبذ الحرب التي كانت تمجها
العقول الواعية، وتشمئز منها النفوس الطيبة.

وإذا تتبعنا زهيراً في معلقته نراه يذكر بني ذبيان وأحلافهم جميعاً
ويسألهم: هل وطنوا النفس على الالتزام بمبدأ السلم؟ أم أنهم
يخفون أموراً يعلمها الله فلن ينجو منهم أحد من حسابه في الآخرة؟
وزهير بذلك يوطئ لإبراز صورة الحرب البشعة بقوله:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة
وذبيان هل أقسمتم كلُّ مُقَسِّم^(١)

(١) - الأحلاف والخلفاء: الجيران. أقسمتم: حلفتم.

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي نَفْسِكُمْ
لِيَخْفَىٰ وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمِ (١)
يُؤَخِّرُ فَيُوضِعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجِلُ فَيَنْقِمَ (٢)
وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجُمِ (٣)
مَنْ تَبَعُثُوهَا تَبَعُثُوهَا ذَمِيمَةٌ
وَتَضُرُّ إِذَا ضَرَيْتُمُوهَا فَتَضُرُّ (٤)
فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكُ الرُّحَى بِثَفَالِهَا
وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثُمَّ تُنْتِجُ فَتُتِمُّ (٥)
فَتُنْتِجُ لَكُمْ غِلْمَانًا أَشَامَ كُلَّهُمْ
كَأَحْمَرَ عَادَ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطِعُ (٦)

(١) - تكتمن: تخفين.

(٢) - ينقم: يقاصص. يدخر: يجمع.

(٣) - ذقتم: جربتم واختبرتم. الحديث المرحم: الذي يرجم فيه بالظنون أي يحكم فيه بظنونها غير العقلية التي لا تعتمد على منطق.

(٤) - يبعثوها: يرسلوها. ذميمة من الذم وهو القبح. وتضري: تقوى وتزداد شراسة، والضري: شدة الحرب. تضرم: تشتعل وتلتهب.

(٥) - ثفال الرحي: بساطها. الرحي: المطحنة. اللقح واللقاح: وضع بذرة الحمل. الكشاف: تلقيح النعجة مرتين في السنة. تنتج: تلد.

(٦) - الشؤم: ضد اليمن وهو السوء والشر. وأحمر عاد صاحب ناقة عاقر واسمه قدار بن سالف. أي أن العاقر في الحرب تولد وتنتج.

فَتَغْلِبْ لَكُمْ مَا لَا تَغْلِبُ لِأَهْلِهَا

قرى بالعراق من قفيز وذِرْهم^(١)

ألا ترى أن هذا الكلام يخمل في ثنائه تهديداً مبطناً للذين يحملون في نفوسهم غلاً وحقدًا من شأنه أن يذكر نار الحروب إذ لا شيء أوجع على المرء من نار الحروب لأنها محرقة النفوس البريئة الطاهرة ومطحنة الرجال الأشداء الذين تعركهم عركاً وتفهرهم قهراً حيث لا تبقى منهم ولا تذر؟

حقاً إن في هذا الكلام تهديداً للذين يحاولون بعث الحرب وإذكاء أوارها لأنها ذميمة قبيحة ولا ينتج عنها إلا فتیان الشؤم، وهم أشد منها أيلاماً وإيجاعاً. فزهير هنا قد شبه الحرب أحياناً بالرحى لقدرتها على الطحن وأحياناً بالناقة التي لا تُثَم إلا بأولاد سوء وشؤم، وأحياناً بالأرض الخصبة التي لا تنبت إلا الشر والتن، فانظر إلى هذه الصورة المتراكبة المستوحاة من الوسط البدوي للتدليل على ضخامة خطر الحرب وفداحته وذلك بأسلوب سهل يغلب عليه طابع البداوة الخالص.

وزهير، عندما يخاطب ذبيان وأحلافها وهو يذكر بأوزار الحرب وويلاتها وما تدره على الناس جميعاً من نتائج مهلكة مدمرة، يظهر وكأنه شاعر الناس جميعاً، وهو بذلك يتحسس ما يتألم منه البشر

(١) - تغلب: تعطي غللاً. فغلل الحرب الدمار وغلل السلم السعادة والاستقرار.

وتكرهه أفندتهم فيدعو إلى رفع الضيم عن الفئات المسحوقة التي تتوق إلى السلم والحرية، وهو بهذا ليس شاعر الجاهليين فحسب بل هو شاعر الناس جميعاً وعبر العصور.

ألا ترى معي أن زهيراً بهذه الصورة قد خرج على عموم الاتجاه الشعري في العصر الجاهلي إذ أن الصفة الغالبة على شعراء ذلك العصر هي أن يعتمد الشاعر منهم على مبدأ الفخر الذاتي، بنفسه ومآثره من ناحية، وعلى مبدأ الفخر الجماعي وهو التغني بأعجاد القبيلة من ناحية ثانية حتى ولو كان ذلك الفخر على حساب القبائل جميعها؛ فخالف زهير بذلك الطبع البدوي في حين أن جميع صوره وتطلعاته مستوحاة من واقع تلك الحياة البسيطة، حيث أن ألفاظه ألفاظهم وصوره صورهم وآمالهم وتشابيهه تشابيههم ولكنه فاقهم جميعاً دقة ورقة وجزالة ويسراً وروعة وفكراً خالداً على الأيام.

وعندما يتحدث زهير عن الحرب فإنما هو شيخ مجرب استطاع بأسلوبه البسيط أن يخاطب القوم على مستوى نفوسهم وأفهامهم حيث حاول أن يثير فيهم ما يمكن أن تولده الحرب من الآثار المؤلمة معتمداً في ذلك أسلوب التهكم النفسي إذ أن الحرب لا تنتج قفيزاً ودراهم كما تنتج مدن العراق وإنما تنتج مصنعا لإزهاق الأرواح الطاهرة وإهراق الدماء الزكية الطيبة.

وأما الذين لم ترعهم هذه الحرب بما تبعته في الناس من قتل وتجدد ثارات وويلات لأن نفوسهم ما زالت تحمل غلاً عظيماً فناموا

موتورين على الرغم من تنادي الحين، عبس وذبيان، بالموافقة على شروط الصلح التي دعا إليها السيدان هرم بن سنان والحارث بن عوف بعد أن تحملاً ديات القتلى من الحين. وهذا الموتور هو حصين بن ضمضم الذي لم ينم على الضيم على حد التعابير البدوية المعروفة، لأن أخاه قد قُتل في بني عبس، فهو لن يقر له قرار حتى يثار لأخيه من أي سيد في خصومه، وبات ينتظر الفرصة المناسبة حتى تمكن من قتل ورد بن حابس العبسي ثأراً لأخيه هرم ابن ضمضم، الأمر الذي أثار الحرب من جديد فأرسل الحارث بن عوف إلى العبسين ولده وפלذة كبده، ومائة من الإبل، ولهم أن يختاروا بين الإبل أو بين قتل ولد الحارث، فاختاروا الإبل ولاذوا إلى السلم فانتهدت تلك الحرب الضروس التي أراد حصين بن ضمضم إيقادها من جديد:

لَعْمَرِي لِنَعْمَ الْحَيِّ جَرٌّ عَلَيْهِمْ

بِمَا لَا يُؤَاتِيهِ حُصَيْنٌ بْنُ ضَمْضَمٍ^(١)

وكان طوى كشحاً على مُسْتَكْنِهِ

فلا هو أبداها ولم يتجمجم^(٢)

(١) - جر عليهم: جنى عليهم. والجريرة الجناية. يؤاتيه: يوافقهم. فحصين بن ضمضم لم يجتمع مع القوم على الصلح لأن ورد بن حابس العبسي قد قتل هرمًا أخا حصين الذي توارى حتى تمكن من قتل ورد.

(٢) - الكشح: منقطع الأضلاع وهو هنا كناية عن إضمار العداوة. المستكن: الملجأ. إلى السكون لأنه لم يعرض عن نواياه.

وقال سأقضي حاجتي ثم اتقي
عدوي بألفٍ من ورائي مُلْجَمٌ^(١)
فشد فلم يفرع بيوتاً كثيرة
لدى حيث أَلَقَتْ رحلها أُمُّ قَشْعَمٍ^(٢)
لدى أسدٍ شاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ
له لَبْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمْ^(٣)
جريءٌ متى يُظْلَمَ يعاقب بظُلْمِهِ
سريعاً وإلاَّ يبدُ بالظلم يَظْلِمُ^(٤)

انظر معي إلى الأسلوب الذي اعتمده زهير في إظهار العديد من العادات البدوية . فهو على الرغم من إيقاف نار الحرب فقد أحس أن هناك من الناس من يضرر في نفسه السوء والضعيفة حتى يحقق المأرب الذي يخفيه عن قومه الذين وافقوا على شروط السلم، وقد تحصن لتحقيق مأربه الذي طواه وخبأه في نفسه بألف فارس من أبناء قبيلته لأنهم لن يتخلوا عنه سواء أكان ظالماً أو مظلوماً، فحصين مطمئن إلى أنه لن يكون وحيداً إذا ما نقض الصلح وثار لأخيه، ولذلك شد على خصمه وانزل

(١) - اتقي : اتجنب . أي أحمي نفسي بألف فارس يقفون ضد عدوي .

(٢) - شد : حل . الإفرع : الإخافة . أم قشعم : كنية المنية .

(٣) - شاكِي السلاح : تامه . مقذف : يوثق به في المعارك فيقذفونه إليها له لبد : أي هو كالأسد غير مقلم الأظفار ولم يجدع أنفه في حرب أو في سلم .

(٤) - جريء : شجاع . ويبد : حذف الألف من آخره للجازم بعد أن كانت يُبدأ، حيث قلبت الهمزة الفأ .

عليه المنية كأسد هصور شاكى السلاح «لا تخيفه حرب ولا يذعنه سلم»، وهو بذلك شجاع لا يرضى بالظلم بل يعاقب عليه سريعاً كما أنه لا يتورع عن إنزال الظلم بالآخرين.

أوليس جيلًا من زهير أن يندد بعمل حصين بن ضمضم الذي نكت بوعده أسياده وهو على ما هو من الشوكة والبأس؟ فحصن بطل فارس مغوار يبدأ بظلم الناس لشجاعته وتسلمته ولكنه في نظر زهير قد أضر بفكرة السلم السامية التي هي مطمح من مطامح جميع الناس في عصر ما قبل الإسلام. فزهير بهذا ناقد سياسي إجتماعي يوجه الناس إلى ما ينبغي أن يتجهوا إليه لما فيه خيرهم وسعادتهم. وهو بهذا يرفض، تصريحاً وتلميحاً، للعديد من العادات الجاهلية البدوية، ويثور عليها إذ لا شيء أحب إلى زهير من السلم ومبادئه، ولا شيء أكثر كرهاً عنده من الحرب التي لا يخلو منها حي من أحياء العرب في الجاهلية لأن حياتهم كانت على رؤوس رماحهم، ولا ينتهون من حرب حتى يبدأوا بحرب جديدة. فانظر إليه كيف أضرب إلى ذكر الحرب ثانية:

رَعَوْا مَا رَعَوْا مِنْ ظِمْمِهِمْ ثُمَّ أَوْرَدُوا

غَمَاراً تَفَرَّى بِالرَّمَا حِ وَبِالْدَمِ^(١)

(١) - الظمأ: الغل. الغمار جمع غمر وهو الماء الكثير. التفري: التشقق والتفريق. والمعنى: رعدوا إبلهم الكلاحتى إذ اعطشت أوردوها مياهاً كثيرة، وهذا كله استعارة لأن المراد أنهم كفوا عن القتال مدة كما ترعى الإبل مدة ثم عادوا إلى الحرب كما ترد الإبل الماء الوفير.

فَقَضُوا مَنَابِيا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا

إِلَى كَلْبٍ مُّسْتَوْبِلٍ مُّتَوَخِّمٍ^(١)

ألا ترى كم هي بشعة ودميمة صور تلك الحروب حيث يرد معها أبطالها إلى مياه غزيرة تسيل دماً ثم لا يلبثون أن يصدروا عنها إلى كلاً ليس فيه إلا الأوبئة والكوارث الوخيمة، التي من شأنها أن تملأ صدور الناس حقداً وضعيفة وهم يستعدون للحروب من جديد، ولكن هذه الحروب قُضِيَ لها أن تنتهي لأن العاملين على إخمادها لم تشترك رماحهم في أذكاء أوارها حيث أنهم لم يسفكوا دماً كما أنهم لم يسهموا بسفك دمائهم لتجنبهم الإسهام في الحرب من بعيد أو من قريب ولكن جل همهم كان أن توقف تلك الحروب التي لن يكون فيها رابح مهما كانت النتيجة فلذلك ترى هريم بن سنان والحارث بن عوف قد عقلا دماء القتلى بدفع الديات لمستحقيها من عبس وذبيان وحققوا الدماء في صدور الناس بعد أن طيَّبوها بالحب والأمل والسعادة إذ أرسلوا الديات إلى أهل المقتولين فعصموا بذلك الناس من الوقوع في أي عظيم وخصوصاً إذا أُلْت بهم حدثان الزمان أو إذا حاول أصحاب الأحقاد والضغائن أن يُنزِلوا فيهم شرورهم وآثامهم وجناباتهم إذ أصبح المتقاتلون بعد الصلح في مأمن من أي خطر.

(١) - فقصوا: أقموا. أصدرت: ضد أوردت. استوبلت الشيء وجدته وبيلاً واستوخته وجدته وخيماً. والوبيل والوخيم الذي لا يُستمر أو يلد تناوله.

أفلا ترى أن زهيراً في هذا المقطع يحاول أن يبين المآثر العظيمة التي حققها ساعياً الصلح حيث تناديا: السلم فأصبح الحيان في مآمن من أي إعتداء إذ طابت النفوس وصفت النوايا وأمحت الأحقاد والأضغان من الصدور ولم يعد باستطاعة الجناة أن يثيروا الفتن ويعبثوا بآمن الناس وحياتهم لأنه لم يَبْدُ في الحين أي مغبون بفضل عمل داعي السلم اللذين لا يضارعهما في عملها أي إنسان مهما كان عظيماً فاستباحا بذلك كنوز المعجدة لعظيم تضحيتهما التي ينبغي أن تكون التضحيات مثلاً:

لَعَمْرُكَ مَا جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِمَاحُهُمْ

دَمَ ابْنُ نَهْيِكَ أَوْ قَتِيلَ الْمُثَلَّمِ (١)

وَلَا شَارَكَتْ فِي الْمَوْتِ فِي دَمٍ نَوْفَلٌ

وَلَا وَهَبَ مِنْهَا وَلَا ابْنُ الْمُحْزَمِ (٢)

فَكَلَّا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَغْفِلُونَهُ

صَحِيحَاتِ مَالٍ طَالَعَاتِ بِمُخْرِمِ (٣)

لِحَيٍّ خَلَّالٍ يَعِصُّمُ النَّاسَ أَمْرُهُمْ

إِذَا طَرَقَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ (٤)

(١) - أي أن الساعين إلى الصلح لم يسهموا في حرب فرماحهم نظيفة.

(٢) - الأسهاء التي وردت في هذا البيت والبيت الذي قبله من أعيان عبس وذبيان من الذي قتلوا في الحرب وقد دفع دياتهم هُرم بن سنان والحارث بن عوف.

(٣) - عقلت القتيل: ودته أي دفعت دته. المخرم: طرف الجبل. طالعَات: عاليات.

(٤) - يعصم: يمنع. الطروق: الإتيان ليلاً.

كَرَامٍ فَلَا ذُو الضُّغْنِ يُذْرِكُ تَبْلَهُ
وَلَا الْجَارِمِ الْجَانِي عَلَيْهِمْ بِمُسْلَمٍ^(١)

وإذا كان زهير قد استكمل كل معاني المدح في رجلين عظيمين
كهرم بن سنان والحارث بن عوف فلما يكون في عمله هذا قد رسم
صورتين بارزتين: الصورة الأولى صورة الإنسان المثال الذي
ضحى بكل ما يستطيع حتى يجعل في كل عين دامعة فرحة، وعلى
كل شفة حزينة بسمه، وفي رحاب النفس اليائسة المظلمة ضياء من
الأمل والرجاء. والصورة الثانية هي صورة الحرب الذميمة البشعة
التي لا تنتج إلا الويل والدمار والأحقاد. وكيف لا يصور زهير
ذلك وهو قد ذرّف على الثمانين من الأعوام إذ أن من طبع الإنسان
المتزن، في مثل هذه السن، أن يعرض للناس ما هو نافع لهم في
مستقبل حياتهم، وكأنه في هاتين الصورتين يريد أن يعظّم
فيدفعهم إلى تقليد الإنسان المثال كما عليهم أن يتعدوا عما يجلب
الشر للآخرين. وهو بهذا رجل معلم أراد أن يعلمنا كيف ينبغي
أن يكون كريم الخلق الذي يعمل دائماً على توطيد عرى المحبة بين
أبناء المجتمع الواحد حتى يساهم في بناء صرح الإنسانية السعيد.

ولنستمع إلى زهير في مقطعه الأخير من المعلقة، فكيف تراه؟

(١) - الضغن والضغينة: ما استكن في الصدر من الحقد والعداوة. التبل: الحقد.
الجارم: الجاني.

سِئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ
 ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسَامُ (١)
 وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ
 وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ (٢)
 رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبُ
 تَمَتُّهُ وَمَنْ تُحْطَىءُ يَعْمُرُ فِيهِرَمِ (٣)
 وَمَنْ لَمَّا يُصَانِعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
 يُضَرَّسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسِمِ (٤)
 وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ
 يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِيَ الشُّتْمَ يَشْتُمُ (٥)
 وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيُخْلُ بِفَضْلِهِ
 عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَفَنُّ عَنْهُ وَيَذْمَمُ (٦)

(١) - سِئِمْتُ الشَّيْءَ سَامَةً: مَلَلْتُهُ وَتَفَجَّرْتُ مِنْهُ. التَّكَالِيفُ: الْمَشَاقُّ. لَا أَبَالِكَ: كَلِمَةٌ جَافِيَةٌ يَرَادُ بِهَا التَّنْبِيهُ.

(٢) - وَهُوَ هُنَا يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ مِنَ الزَّمَانِ وَلَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا عَمَّا يَجِبُهُ لَهُ الْمُسْتَقْبَلُ.

(٣) - الْخَبَطُ الضَّرْبُ بِالْيَدِ. الْعَشْوَاءُ ثَانِيَةُ الْأَعْشَى الَّذِي لَا يَبْصُرُ لَيْلًا. وَهُوَ هُنَا كُنَايَةٌ عَنِ النَّاقَةِ.

(٤) - الْمَصَانِعَةُ: الْمُدَارَاةُ. أَيُّ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَدَارِ النَّاسَ فَلَا بَدَّ مِنْ أَنَّهُمْ سَيَقْهَرُونَهُ حَتَّى.

(٥) - يَرِيدُ أَنْ مَنْ كَانَ مَعْرُوفَهُ ذَبَا عَنْ عَرْضِهِ صَانَهُ مِنَ الشُّتْمِ وَمَنْ يَخْلُ دُونَ ذَلِكَ سَيَشْتُمُ.

(٦) - وَمَنْ كَانَ ذَا فَضْلٍ وَمَالٍ وَيَخْلُ بِهِمَا عَنْ قَوْمِهِ فَيَسْتَفَنِّي عَنْهُ قَوْمُهُ وَيَذْمَمُونَهُ.

ومن هاب أسباب المنايا يتلننه
 وإن يرق أسباب السماء يسلم^(١)
 ومن يجعل المعروف في غير أهله
 يكن حمده ذمًا عليه ويتسدم^(٢)
 ومن يعصر أطراف الزجاج فإنه
 يطبع العوالي ركبت كل لهزم^(٣)
 ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه
 يهدم^(٤) ومن لا يظلم الناس يظلم^(٥)
 ومن يغترب بحسب عدوًا صديقه
 ومن لا يكرم نفسه لا يكرم^(٥)
 ومهما يكن عند امرئ من خليفة
 وإن خالها تخفى على الناس تعلم^(٦)

- (١) - رقي: سعد ومن خاف المنية لا بد من أنها ستال منه ولن ينفعه خوفه.
 (٢) - إن من يحسن إلى من لم يكن أهلاً للإحسان سيرتد إليه إحسانه شتماً عليه
 وفما له فيندم بعد ذلك على عمله.
 (٣) - الزجاج: جمع زج وهو حديدة في أسفل الرمح. اللهزم شلقة الرمح الطويلة
 عالية الرمح ضد سافله والجمع عوالي. وعصيان الزجاج: الامتناع عن
 الصلح، وهو بذلك لجأ إلى الحرب والامتنال لأمر الرماح.
 (٤) - الذود: الدفاع. أي من لا يدافع عن نفسه ويبدأ بظلم الناس يظلمه الناس.
 (٥) - من سافر واغترب حسب الأعداء أصدقاء لأنه لم يجربهم فتوقفه التجارب على
 ما في ضمان من النوى. ومن لم يكرم نفسه بالترفع عن الدنيا لا يمكن أن يكرمه
 الناس.
 (٦) - الخليفة هنا النقيصة. أي ومهما يكن عند الناس من نقص فإنه لا بد أن يعلم
 ومهما بلغت الحيلة من إخفائه.

وكائن ترى من صامت لك مُعْجِب
 زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكْلَمِ (١)
 لِسَانُ الْفَتَى نَضْفُ وَنَضْفُ فَوَاضَهُ
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ (٢)
 وَإِنْ سَفَاهُ الشَّيْخُ لَا جِلْمَ بَعْدَهُ
 وَإِنْ الْفَتَى بَعْدَ السُّفَاهَةِ يَحْلُمُ (٣)
 سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُذْنَا فَعُذْتُمْ
 وَمَنْ أَكْثَرَ التَّسْأَلِ يَوْمًا سَيُحْرَمُ (٤)

ألا ترى أنه قد سئم تكاليف هذه الحياة؟ فكيف لا يسأم رجل مثله وقد بلغ الثمانين من العمر؟ وكيف لا يسأم كذلك من عاش أجواء الجاهلية الروتينية الرتيبة التي لا شيء فيها يبعث في نفس الإنسان الأمل على حب البقاء وممارسة الحياة بشكلها الطبيعي الذي ينبغي أن يدفع بالإنسان إلى الاستمرار عطاءً وإبداعاً؟ فلماذا يا ترى لا يطمح ولا يطمع زهير في هذه الحياة وهو لا يعرف منها أكثر مما مرّ ويمر، وأما المستقبل فقاتم أسود ومضير الإنسان فيه

-
- (١) - الكائن هنا الرجل . الصمت: السكوت . فقد يحجبك رجل لصمته ولكن كلامه حقيقة هو الذي يحقق ذلك الإعجاب فعلاً أو يرفضه .
 (٢) - كأن نقول: المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إحساساً وتعبيراً .
 (٣) - يقول إن الشيخ إذا شب سفيهاً فلا يمكن أن يرجع عن سفاهة . أما الفتى فهو على غير ذلك . لأن من شب على شيء شاب عليه ، وواجب التقويم للأغضاض .
 (٤) - التسأل : كثرة الطلب . يقول سألناكم مجدتم ولكن كثرة الطلب تؤدي حتماً إلى الحرمان .

مجهول الصورة والحدود؟ وأما المنية عنده فهي كناقاة عشواء تدب ليلاً ولا ينجو منها إلا من تحطته فيمتد به العمر حتى يصل إلى أرذله، فلذلك على الإنسان أن يتمرّس بأمور هذه الحياة ويسبر أغوارها حتى لا تدوسه بأخفافها العريضة وتعركه وتطحنه بأضراسها القوية. فمن واجب الإنسان بهذا أن لا يجعل عُرْضَهُ عُرْضَةً لَذم الناس وشتائمهم بما يقوم به من عمل الخير لأن الغاية من المعروف حماية العرض لا تعريضه. وأما من يمتلك الفضل والغنى فعليه أن لا يكون بخيلاً بهذا الفضل عن الناس وخصوصاً عن أبناء قومه المحتاجين حتى لا يتخلى عنه قومه ويصبح مذموماً سيئ السمعة بين الناس لتخليه عن شركائه في الفضل لأن الإنسان لا تكبر قيمته وتعلو سمعته إلا بتجمع أفراد عشيرته حوله. وأما إذا كان هذا المعروف في غير مستحقه الذين لا يقدرونه حق قدره فلأنه لا يجرُّ على صاحبه إلا الذم منهم والندم على ما أقدم عليه. وأما الذي يعصي الدعوة للسلم أو الصلح فإن الحرب كفيلة بإرغامه على الخضوع للرماح فهي على قول المتنبي: «أذهب للغبيظ وأشفي لغل صدر الحقود». فعلى الإنسان أن يقف في هذه الحياة مدافعاً عن نفسه وبسلاحه وإلا سيكون مصيره إلى الهزيمة والاندحار ولا تكتب له الحياة إلا إذا بدر إلى ظلم الناس وإنزال الشر فيهم، فيعيش مكرماً بينهم لأن حياضه وحرمة بقيت مصانة لا غبار عليها. وأما الإنسان الذي يحاول إخفاء نقائصه على الناس فهو مخطئ لأن الأيام كفيلة بكشف كل العيوب «الدرب الطويلة

كشافة العيوب». فالإنسان عند زهير نصفان على حد تعبير المثل المأثور «المرء بأصغريه: قلبه ولسانه» فالقلب عنده مركز الإحساس وأما اللسان فهو أداة ذلك الإحسان وما تبقى من الجسم البشري ما هو إلا أوعية لحفظ الجسم وأوردة الدماء. فاللسان له عنده دور مهم «إن صنته صانك» إذ «من لا يكرم نفسه لا يكرم» بدءاً باللسان وانتهاء بعظيم الأعمال.

فزهير في هذا المقطع الحكمي رجل تضلع بأمور الحياة فأكسبته دراية عظيمة بها جعلته يحدد لنا، وانطلاقاً من تجربته الحسية البدوية الصادقة، أموراً عديدة تضع الإنسان منا وجهاً لوجه أمام معضلات الحياة الكبرى، بصدق وأمانة وواقعية، رغم بساطة بعض تلك الأمور حيث يحض على المصانعة والمعروف والفضل والوفاء والشجاعة والامتثال إلى الملاء... وكيف لا تحمل حكمه بعض البساطة وهو القائل «ومن لا يظلم الناس يظلم» وهو لا يلام في ذلك لأن طبيعة حياة البدوي كانت تفرض عليه مثل هذا القول.

وإذا أعدنا النظر في المعلقة عموماً فإننا نرى زهيراً شاعراً قومه، فهو يتحدث عنهم وإليهم ويريد أن يصرفهم عما يكرهون ويكره لهم ويدعوهم إلى التخلص من الحزازات والأحقاد التي من شأنها أن تثير الحروب وتهرق الدماء، وهو من أجل ذلك لا يفرغ لمدح هريم والحارث إلا لأنها قد ثبتا الصلح وعصما الناس من استمرار الفتنة.

النزعة الفنية في شعر زهير.

إذا صح ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «زهير شاعر الشعراء لأنه لا يعاقل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح الرجل إلا بما فيه» فإنما يدل هذا القول على دراية عمر بأمور الكلام ودقة استعماله لأنه يستطيع أن يميز فعلاً بين عملية التداخل اللفظي التي من شأنها أن تربك الأفهام وتسيء إلى السياق اللغوي في آن معاً، لأن سلامة اللفظ في دقة تراكيبه، وجماله فيما تحمله تلك التراكيب من الدلالات المعبرة والصور الموحية . ولقد أوضحنا في أكثر من مجال عندما عرضنا لأغراض زهير الشعرية، أن صياغته في شعره ، على جانب عظيم من الصفاء والوضوح خللها من العديد من الاستعمالات التي من شأنها أن تسيء إلى التعبير الشعري حيث يهتز معها رونق الصور التي يحملها هذا الشعر ، فتسقط بذلك قيمته الأدبية ويصبح بذلك مجرد كلام لا رواء فيه ولا جمال .

وزهير في شعره كثير التأنق حتى تحس وأنت تقرأ له أنه قادر على امتلاك زمام اللغة بحيث لا يستعمل الكلمة من السياق اللغوي إلا في مواضعها فتشعر عندها بمتعة غريبة تغرسها في نفسك

إيقاعاته المتساوقة التي تدل دلالة قاطعة على درايته في عملية إظهار جمال الصورة برقة ورشاقة، ليس فيها أي نشاز يذكر من شأنه أن يضعف من تراكيبه وقوافيه وصوره الحسية الجميلة.

فانظر إليه كيف تأتي قوافيه وهي تنسكب انسكاباً في مواضعها كما في مثل قوله :

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

فلاحظ كلمة عمٍ مثلاً فهل يمكن إبدالها بكلمة غيرها؟ ثم انظر إليه في البيت التالي :

هم يضربون خبيك البئص إذ لحقوا

لا ينكصون إذا ما استلحموا وحموا

فانظر إليه كيف استخدم كلمة «حموا» التي فرضت نفسها فرضاً في آخر البيت لتتجانس مع «استلحموا» وهذا ما عرفه علماء البديع بعلم الجناس . وأما في البيت التالي كذلك :

كأن عيني وقد سال السليل بهم

وجيرة ما هم لو أنهم أمم

حيث جانس بين كلمتي «سال» و «الليل» وتعلق بحرف الميم في الفاظ الشطر الثاني ، كل ذلك ليساهم مساهمة فعالة في عملية الجرس والإيقاع التي تنسجم معها النفوس إضافة إلى ارتياحها إلى المعنى . وأما البيت التالي :

وقد قلتها إن نُذِرِكَ السلمَ واسعاً
 بمالٍ ومعروفٍ من القولِ نَسْلَمُ
 فقد جانس بين كلمة «السلم» في الشطر الأول و«نسلم» في
 الشطر الثاني. وقوله كذلك:
 تَقِيُّ نَقِيٍّ لَمْ يُكْثَرْ غَنِيْمَةٌ
 بِنَهْكَ ذِي الْقَرْبَى وَلَا بِحَقْلَدٍ
 لمجانسته بين كلمة «تقي» و«نقي»

فاستعمال الجناس في شعر زهير لم يقصد إليه صاحبه كنتيجة
 لتكلف وتصنع وإجهد لأنه كان كما ترى عفو الخاطر وذلك يعود
 إلى إحاطته التامة بالمعجم العربي الذي تنال عليه ألفاظه انشياً
 فيختار زهير بحنكته وتضلعه ما يجده مناسباً لتجويد تراكيبه اللفظية
 في إظهار صورته الشعرية على الشكل الذي ترى. وأما في هذا
 البيت:

فأَصْبَحْنَ لَا يَعْرِفْنَ إِلَّا خَلِيقِي
 وَإِلَّا سَوَادَ الرَّأْسِ وَالشَّيْبُ شَامِلُهُ
 فانظر إليه كيف التفت إلى شيب رأسه بعد أن كان مجللاً بالسواد
 الذي كان الأحبة يعرفنه به وهو خير ما كان يُزِينُهُ.
 وأما عن مراعاة النظير فقد شبه ناقته بالبقرة الوحشية في سرعتها
 فاستمر بوصف تلك البقرة ليراعي نظيره، حيث يقول:

كخنساء سعاء الملاطم حرة
مسافرة مزوودة أم فرقد
غدت بسلاح مثله يتقى به
ويؤمن جأش الخائف المتوحد

وأما استخدامه الطباق حيث تتعارض اللفظتان في معنيهما
قوله :

جَعَلَنَ الْقَنَانُ عَنْ يَمِينٍ وَحَزَنَهُ
وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرِمٍ

إذ طابق بين اللفظتين « محل » و « محرم » .

أو قوله :

يَمِينَا لِنِعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدُّمَا
على كل حال من سجيل ومبرم

لمطابقتها بين « سجيل » لاعتباره ضعيفاً وبين « مبرم » لاعتباره قوياً .

أو قوله كذلك :

وَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَلْمَى سَنِيناً ثَمَانِيَا
على صبر أمر ما يمر وما يخلو

حيث طابق بين المرارة والحلاوة في الفعلين « يمر » و « يخلو » .

واستمع إليه كذلك في قوله :

لَيْتُ بَعِثْتُ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا
مَا كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا
لمطابقته بين «كذب» و «صدق» .

وزهير بهذه الاستعمالات البديعية، كما لاحظت، لم يكن يدرك
أنها ستكون أساساً من المحسنات اللفظية التي تزين النصوص
وتزيدها رونقاً وبهجة وإنما كانت تصدر منه هذه الألوان عفويّاً
وبدون تصنع يذكر أو تكلف مقصود كما أشرنا إلى ذلك في أكثر من
موضع . ولكن الغرض الأساسي عنده هو الاهتمام بالصورة التي
كان يتقصى كل أجزائها معتمداً في ذلك طريق التشابه الحسية التي
تساعده على إبراز صورة بشكلها القشيب وألوانها الزاهية حيث
نحس معه ونحن نتأمل صورته بأننا «أمام عالم خيالي جالم، خاصة
حين تلقانا تشابهيه واستعاراته وما يملؤها به من أشباح وأرواح،
حيث نستشف معه كثيراً من الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض كما
نستشف الجمال في داخلها ونشعر بغير قليل من المتاع» .

ولا أشك لحظة في أنك قد تأملت بإمعان ما عرضناه من شعر
زهير أثناء استعراضنا لأغراضه حيث عرضنا، مع ذلك، للكثير
من الاستعارات والتشابه التي تساعد على تجسيد تلك الصور
الزهيرية الرائعة .

وعلى سبيل المثال لا التكرار والحصر، نقرأ هذه الأبيات من
شعر زهير فماذا نرى :

تنازعها المها شهباً ودرّ الد
حُورِ وشَاكَهَتْ فيها الظباءُ
فأما ما فوق العنق منها
فمن أدماء مرتعها الخلاء
وأما المقلتان فمن مهاة
وللدّر الملاحه والصفاء

ألا ترى أنه لا يشبه حبيته بالمها وبالدر والظباء وينصرف إلى
إيراد غيرها من الصور بل يعتمد إلى التفصيل في هذا التشبيه،
وبشكل غير ممل ولا متكلف، حيث يقول بأن صاحبه «تشبه
الظباء في جيدها الجميل الطويل وبقر الوحش في سواد عينيها
الفاتنتين والدر في ملاحته وصفائه ولمعانه وبهائه»

هذا في التشبيه وأما في الاستعارة فانظر إليه من خلال هذا
البيت:

لدى أسد شاكي السلاح مقذِف
لَهُ لَيْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمْ
فانظر إليه كيف شبه بمدوحه بالأسد فحذف المشبه ودل
عليه بشيء من لوازمه وهو استعمال السلاح على سبيل
الاستعارة التصريحية لتصريحه بالمشبه به. وأما قوله:
صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعُرِّي أفراس الصُّبا ورواحله

فقد استعار فيه للصبأ أفراساً ورواحل قد تعرت لأن عهود الصبابة قد ولت إلى حيث لا رجعة . وهذه الصورة كما نرى «لا تقع إلا في ذهن من يكثر من التخيل والإغراق في التصور، ذهن يتعمق في الأشياء والمعاني حتى يتخيلها أحياء حقيقية» .

وأما في الكناية فانظر إليه يقوله :

أليس بفياض يدها غمامة
ثمال اليتامى في السنين مُحَمَّد
ألا ترى أن في تشبيهه يدي الممدوح بالغمامة كناية عن الكرم الذي يجلب الحمد لصانعيه؟

أو قوله :

وأبيض فياضٌ يدها غمامة
على مُغْتَفِيهِ ما تُغِبُّ فواضله

ونحن ما أوردنا من أنواع الاستعارات والتشابه والكنائيات وألوان البديع فإننا لن نستطيع أن نوفي زهيراً حقه من البحث للتدليل على قدرته الفنية في إظهار صوره الخالدة وكأننا به «كان الثمرة النهائية للجهود الفنية التي أودعها الجاهليون أشعارهم، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل، ومن جهة ثانية عني بموسيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيها أي شذوذ، ومن جهة ثالثة استتم فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة» والمجاز .

وإذا كنا نرى في زهير شاعراً من شعراء الجمال الفني الخالص فإننا نرى فيه شاعراً حكيماً حدد معاني الخير والصلاح ، وداعية من دعاة السلم والحرية ، ومتأنقاً من متأنقي الشعر حتى بدا شعره وكأنه نسيج وحده من حيث سلامة اللفظة والعبارة وصفاء الصورة واكتمالها حتى قيل فيه «انه صاحب الحوليات» لتشدده في الاعتناء بشعره .

أما ما يقوله البعض من أن قصائده يدخلها شيء من الارتباك في ترتيب أبياتها فهذا أمر لا يضير زهيراً في شيء مما عيب عليه لكمال صورته على تعددها وحتى في القصيدة الواحدة .

وأما ما يتعلق بالوحدة الفنية التي تجمع وشائج القصيدة عنده ، فهذا أمر قد بدا معه زهير واضحاً ، فإذا كانت قصائده متعددة الأغراض ، وكل غرض عنده ما كان إلا ليثبت صاحبه بأنه فنان حاذق في تحديد مواطن الجمال فيه ، فإن ذلك لا يعني أن قصيدة زهير لا تخلو من روابط موضوعية تشد أو اصرها ، إذ أن استقلالية البيت أو المقطع في القصيدة الواحدة لم تكن عبثاً .

«أقوم آل حصن أم نساء»

نزل رجل من بني عبد الله بن غطفان ببني غليب ، وهم آل بيت من كلب ، من بني عُليم ، فأكرموه واحسنوا جواره . وكان هذا الرجل مولعاً بالقمار فهو عنه فأبى إلا المقامرة ، فقمر مرة فردوا عليه خسارته ، ثم قمر أخرى فردوا عليه ، فقمر الثالثة فلم يردوا عليه ؛ ويقال : إنه رهن زوجته وابنه ، فكان الفوز عليه فترحل عنهم وشكا ما صنعوا به إلى زهير ، والعرب حينئذ يتقون الشعراء ، فهجاهم زهير ، ثم لما علم حقيقة الأمر ندم وقال : ما خرجت في ليلة ظلماً إلا خفت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم وهذا بعض ما قاله في هجائهم :

عفا من آل فاطمة الجواء

فَيُؤْنُ فَالْقَوَادِمُ فَالْحِساءُ^(١)

فَلَوْ هَاشِرُ فَمَيْثُ عُرَيْتَاتٍ

عَفَّتْهَا الرِّيحُ بَعْدَكَ وَالسَّاءُ^(٢)

(١) - عفا : درس واعى . الجواء ويمن والقوادم والحساء : مواضع في بلاد غطفان .

(٢) - ذوهاش : موضع . الميث : جمع ميثاء : الرولة السهلة . عريتات : موضع .

فَذِرْوَةٌ فَالْجَنَابَ كَانَ خُنْسَ
 النَّعَاجِ الطَّاوِيَاتِ بِهَا الْمَلَأَ^(١)
 فَلَمَّا أَنْ تَحْمَلُ آلَ لَيْلَى
 جَرَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ظُبَاءَ^(٢)
 تَنَازَعَهَا الْمَهَا شَبَهَا وَدُرُّ
 النُّحُورِ وَشَاكَهَتْ فِيهَا الظُّبَاءَ^(٣)
 فَأَمَّا مَا فُورِقَ الْعِقْدِ مِنْهَا
 فَمِنْ أَدْمَاءَ مَرَّتْهَا الْخَلَاءُ^(٤)
 وَأَمَّا الْمُقْلَتَانِ فَمِنْ مَهَاةٍ
 وَلِلدَّرِ الْمَلَاةِ وَالصَّفَاءِ
 كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ
 مِنَ الظُّلْمَانِ جُوجُؤُهُ هَوَاءُ^(٥)

(١) - ذروة والجناب: موضعان. الخنس جمع الخنساء: قصيرة الأنف. النعاج: جمع نعجة وهي انثى البقر. الطاويات الضامرات. الملاء: أردية الحرير البيضاء.

(٢) - أراد أن الحبيبة بعدت عنه حتى أصبح ما بينه وبينها ملبعاً للظباء فتشامم لذلك.

(٣) - المها: بقر الوحش. شاكته: شابهت.

(٤) - فوريق العقد: أراد به طول العنق. الأدماء: الظبية البيضاء. الخلاء: الموضع الخالي.

(٥) - الرحل: الناقة. الصعل: الظليم وهو ذكر النعامة. الجوجؤ: الصدر. هواء: خال لا قلب فيه.

أَصْكَ مُصَلِّمِ الْأَذْنَيْنِ أَجْنَى
لَهُ بِالسِّيِّ تَنُومِ وَأَهُ^(١)
أَذْلِكَ أَمْ شَتِيمِ الْوَجْهِ جَابُ
عَلَيْهِ أَمْ عَقِيقَتِهِ عَفَاءُ^(٢)
تَرْبَعِ صَارَةً حَتَّى إِذَا مَا
فَقَى الدُّحْلَانَ عَنْهُ وَالْأَضَاءُ^(٣)
تَرْفَعِ لِلْقَنَانِ وَكُلُّ فَجٍ
طَبَاهِ الرَّغْيِي مِنْهُ وَالْخَلَاءُ^(٤)
فَأَوْرَدَهَا حِيَاضَ صُنَيْعَاتٍ
فَأَلْفَاؤُنْ لَيْسَ بِهِنْ مَاءُ^(٥)
فَشَجُّ بِهَا الْأَمَاعِزَ فِيهِ تَهْوِي
هَوْيِي الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرُّشَاءُ^(٦)

(١) - الأصك: المتقارب العرقوين. المصلِّم: المقطوع. السِّي: موضع. التَنُوم: نوع من الشجر. الأء: ثمر السرح.

(٢) - الشَّتِيم: الكريه. الجَاب: الغليظ. العَقِيقَةُ: شعر الحمار الذي ولد به. العَفَاء: الشعر والوبر.

(٣) - تَرْبَع: أقام الربيع. صَارَةً: موضع. فَقَى مِنْ: انعدم. الدُّحْلَانُ جمع دحل: البشر. الْأَضَاء: الغدران.

(٤) - تَرْفَع: اعتلى. الْقَنَانُ جبل لبني أَسَد. الْفَج: الطريق بين جبلين. طَبَاه: دعاه.

(٥) أَوْرَدَهَا أَي ذَهَبَ بِالْحِمَارِ وَأَتَانَهُ إِلَى الْمَاءِ. الْحِيَاضُ: منافع الماء صُنَيْعَاتٍ: اسم أرض.

(٦) - شَجَّ الْأَرْضَ: رَكَبَهَا وَعَلَاهَا. الْأَمَاعِزُ: الْأَرْضُ الْكَثِيرَةُ الْحَصَى. تَهْوِي: تَسْرِعُ. الرُّشَاءُ: الْحَبْلُ.

وقد اغدو على ثبة كرام
 نشاوى واجدين لما نشاء^(١)
 هم راح وراوق ومنك
 تعل به جلودهم وماء^(٢)
 يجرون البرود وقد تمشت
 حيا الكأس فيهم والغناء^(٣)
 تمثي بين قتل قد أصيبت
 نفوسهم ولم تهرق دماء^(٤)
 وما أدري وسوف إخال أدري
 أقوم آل حصن أم نساء^(٥)
 فإن قالوا: النساء مخبات
 فحق لكل محصنة هذاء^(٦)

(١) - الثبة: الجماعة من الناس. نشاوى: سكارى.

(٢) - الراح: الخمرة. الراوق المصفاء وهي خرقة تصفى بها الخمر. تعل به: تطيب به.

(٣) - البرود واحدتها بردة وهي الثوب الموشى. حيا الكأس: صدمة الخمر في الرأس.

(٤) - تمثي: أي الخمر تمثي. وأراد بالقتل: السكارى. تهرق: تسفك.

(٥) - القوم أراد بهم الرجال دون النساء. سوف إخال أدري: سوف أبحث عن الحقيقة.

(٦) - المحصنة: ذات الزوج. اهذاء: الزواج.

وَإِنَّمَا أَنْ يَقُولَ بَنُو مَصَادٍ:
 إِلَيْكُمْ! إِنَّمَا قَوْمٌ بَرَاءٌ^(١)
 وَإِنَّمَا أَنْ يَقُولُوا: قَدْ وَفِينَا
 بِذِمَّتِنَا فَعَادَتُنَا الْوَفَاءُ
 وَإِنَّمَا أَنْ يَقُولُوا: قَدْ أَبَيْنَا
 فَشَرُّ مَوَاطِنِ الْحَسْبِ الْإِبَاءُ
 وَإِنْ الْحَقُّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثُ:
 يَمِينُ أَوْ نِفَارُ أَوْ جِلَاءُ^(٢)
 فَذَلِكَ مَقَاطِعُ كُلِّ حَقٍّ
 ثَلَاثُ كُلُّهُنَّ لَكُمْ شِفَاءُ^(٣)
 جَوَارٌ شَاهِدٌ عَدْلٌ عَلَيْكُمْ
 وَبَيَانُ الْكَفَالَةِ وَالتَّلَاءُ^(٤)
 بِأَيِّ الْجِيرَتَيْنِ أَجْرَمُوهُ
 فَلَمْ يَضْلُخْ لَكُمْ إِلَّا الْأَدَاءُ^(٥)
 وَجَارٌ سَارٌّ مُعْتَمِدٌ عَلَيْكُمْ
 أَجَاءَتِهِ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ

(١) - بنو مصاد: من بني حصن.

(٢) - ثلاث: ثلاث خصال. اليمين: الخلف. الجلاء: وضوح الأمر.

(٣) - قوله: شفاء أي جعل في الحق شفاء من الشك والالتباس.

(٤) - التلأ: الخوالة.

(٥) - بأي الجيرتين: أي الكفالة والتلأ.

فَجَاوَزَ مُكْرَمًا حَتَّى إِذَا مَا
 أَتَاهُ الصَّيْفُ وَانْقَطَعَ الشِّتَاءُ
 ضَمِنْتُمْ مَالَهُ وَغَدَا جَمِيعًا
 عَلَيْكُمْ نَقْصُهُ وَلَهُ النَّهَاءُ^(١)
 وَلَوْلَا أَنْ يَنْأَلَ أَبَا طَرِيفٍ
 مِنَ الْكَلِمَاتِ آتِيَةٌ بِمَلَاءٍ^(٢)
 فَلَمْ أَرْ مَعْشَرًا أَسْرُوا هَدِيًّا
 وَلَمْ أَرْ جَارَ بَيْتٍ يَسْتَبَاءُ^(٣)
 وَجَارَ الْبَيْتِ وَالرَّجُلِ الْمُنَادِي
 أَمَامَ الْحَيِّ عَقْدُهُمَا سَوَاءُ^(٤)
 أَبِي الشُّهْدَاءِ عِنْدَكَ مِنْ مَعَدٍّ
 فَلَيْسَ لِمَا تَدِبُّ لَهُ خَفَاءُ^(٥)
 وَإِنِّي لَوَلَقَيْتُكَ فَاجْتَمَعْنَا
 لَكَانَ لِكُلِّ مُنْدِيَةٍ لِقَاءُ^(٦)

(١) - النهاء: الزيادة من الإنتاج.

(٢) - أبو طريف: الرجل المأسور. المليك: أراد به الأمير لأنه يملك الأسير.
 الملحاء: الملاحاة واللوم.

(٣) - الهدي: الزوج ذو الحرمة وهو المستجير بالقوم. يستباء: تؤخذ زوجته.

(٤) - الرجل المنادي: المجالس صاحب البيت والمجير في آن.

(٥) - أب: امتع. الشهداء: الحاضرون الذين شهدوا بالحق. تدب له: تمشي إليه. أراد أن الأمر أوضح من أن يخفى لصحة دلائله وكثرتها.

(٦) - المندية: المخجلة التي تجعل جبين المرء يتصبب عرقاً. لقاء: ما نجتمع من أجله.

فمَهْلًا ، آلَ عبدِ الله ، عَدُّوا
 نَحَازِي لَا يَدْب لها الضَّرَاءُ^(١)
 أَرُونَا سُنَّةَ لَا غَيْبَ فِيهَا
 يُسَوِّي يَتَنَّا فِيهَا السُّوَاءُ^(٢)
 فَإِنْ تَدْعُوا السَّوَاءَ فَلَيْسَ بَيْنِي
 وَبَيْنَكُمْ بَنِي حِصْنٍ بَقَاءُ^(٣)
 وَبَقِيَ بَيْنَنَا قَذَعٌ وَتَلَفُوا
 إِذَا قَوْمًا بِأَنْفُسِكُمْ أَسَاؤُوا^(٤)
 وَتَوَقَّدَ نَارُكُمْ شَرًّا وَيُرْفَعُ
 لَكُمْ فِي كُلِّ مَجْمَعَةٍ لُؤَاءُ^(٥)

(١) - بنو عبد الله : حي من كلب . عَدُّوا نَحَازِي : أي اصرفوا عن أنفسكم هذه المقابح التي تنالكم بغدركم .

(٢) - السواء : العدل . أي أرونا سنة ، طريقة ، لا يعاب عليكم تُسَوِّي بيننا بالحق .

(٣) - تَدْعُوا السَّوَاءَ : تتركوا العدل في الحق ، فلا يُبْقَى بعضنا على بعض شيئاً .

(٤) - القذع : القبيح من القول .

(٥) - توقد ناركم شرراً : يظهر أماركم في الناس وهنا النار هي نار الشهرة

وقالت أم كعب لا تزرنني

قال هذه الأبيات لأم ولده كعب وبجير بعد أن لاقت منه
صدوداً خشونة تصرفها معه :

وقالت أم كعب لا تزرنني
فلا والله ما لك من مزار
رأيتك عبتني وصددت عني
وكيف عليك صبري واضطباري
فلم أفسد بنبك ولم أقرب
إليك من الملمات الكبار
أقيمي أم كعب واظمني
فإنك ما أقمت بخير دار

ولكن أم أوفى لا تبالي .

قال ابن الأعرابي : أم أوفى التي ذكرها زهير في شعره كانت امرأته فولدت منه أولاداً ماتوا، ثم تزوج بعد ذلك امرأة أخرى وهي أم ابنه كعب وبجير فغارت من ذلك وآذته فطلقها ثم ندم فقال فيها :

لَعَمْرُكَ وَالْخُطُوبُ مُغَيَّرَاتُ

وفي طولِ المعاشرة التقالي^(١)

لَقَدْ بَالَيْتُ مَظْعَنَ أُمِّ أَوْفَى

وَلَكِنْ أُمُّ أَوْفَى لَا تُبَالِي^(٢)

فَأَمَّا إِذْ نَأَيْتِ فَلَا تُقُولِي

لِإِذِي صِهْرٍ : أَذِلْتُ وَلَمْ تُذَالِي^(٣)

أَصَبْتُ بَنِيَّ مِنْكَ وَنَلَيْتِ مِنِّي

مِنَ اللَّذَاتِ وَالْحُلَلِ الْغَوَالِي

(١) - التقالي : التباغض .

(٢) - المظعن : السفر، الفراق . باليت : اهتمت .

(٣) - اذلت : اهنت .

«أردد يساراً»

قال ابن الأعرابي: كان الحارث بن ورقاء الصيداوي من بني أسد، قد أغار على بني عبد الله بن غطفان، فغنم بجملة ما غنم إبل زهير وراعيه يساراً، فقال فيه مهدداً:

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأُؤُوا لِمَنْ تَرَكَوْا

وزودوك اشتياقاً أَيْةً سَلَكَوْا^(١)

رَدُّ الْقِيَانِ جَمَالَ الْحَيِّ فَاخْتَمَلُوا

إِلَى الظَّهِيرَةِ أَمْرٌ بَيْنَهُمْ لَبِكَ^(٢)

مَا إِنْ يَكَادُ يُخْلِيهِمْ لِوَجْهِتِهِمْ

تَخَالَجُ الْأَمْرَ إِنْ الْأَمْرُ مُشْتَرَكُ^(٣)

يُغْشَى الْحُدَاةَ بِهِمْ وَغَثَ الْكُتَيْبِ كَمَا

يُغْشَى السَّفَائِنَ مَوْجَ اللَّجَّةِ الْعَرَكُ^(٤)

(١) - الخليط: المخالطون في العيش. لم يأؤوا: لم يرحموا. أي ذهبوا عنك بمن تحب ولم يرحموك.

(٢) - القيان: الإماء. إلى الظهيرة: أي طالت رحلتهم إلى الظهيرة. اللبك: المرتبك.

(٣) - تخالج الأمر: تخالف.

(٤) - الوعث: اللين. العرك: النوي قائد السفينة.

هل تُبْلِغْنِي أَذْنَ دَارِهِمْ قُلُوصُ
 يُزْجِي أَوَائِلَهَا التَّبْغِيلُ وَالرَّتْكَ^(١)
 مثل النعام إذا هَيَّجَتْهَا ارْتَفَعَتْ
 على لَوَاجِبٍ بِيضٍ بَيْنَهَا الشَّرْكَ^(٢)
 وقد أَرُوحُ أَمَامَ الْحَيِّ مُقْتَنِصًا
 قُمْرًا مَرَاتِعُهَا الْقَيْعَانُ وَالنُّبْكَ^(٣)
 وصاحبي وَرْدَةٌ نَهْدُ مَرَائِلِهَا
 جَرْدَاءُ لَا فَحْجَ فِيهَا وَلَا صَكَكَ^(٤)
 كَأَنَّهَا مِنْ قَطَا الْأَجْبَابِ حَلَاهَا
 وَرَدَّ وَأَفْرَدَ عَنْهَا أُخْتَهَا الشَّرْكَ^(٥)
 أَهْوَى لَهَا أَسْفَعُ الْخَدَّيْنِ مُطَّرِقُ
 رِيشَ الْقَوَادِمِ لَمْ يُنْصَبْ لَهُ الشُّبْكُ^(٦)

(١) - الْقُلُوصُ: مفرد قلووص: الفتية من الإبل. يزجي: يسوق. التبغيل: سير البغال. الرتك: مقارنة الخطو.

(٢) - مثل النعام: أي ضامرة. هيجهتها: حشيتها. اللواجب: مفرد لاجب: الطريق الواضحة.

(٣) - القمر: الواحد: أقرم وقمرءاء: حمر الوحش. القيعان: بطون الأرض. النُّبْكَ: الراية.

(٤) - وردة: أي فرس وردية اللون. النهْد: الغليظ. المراكل: القوائم. الفحج: تباعد بين القوائم. الصكك: اضطراب الركبتين.

(٥) - الأجباب: الواحد جب: البشر. حلأها: طردها عن الماء. الورد: القوم يردون الماء. الشرك: الفخ.

(٦) - أهوى: انحدر. أسفع الخدين: كناية عن الصغر. والسفعة: سواد يضرب إلى الحمرة. لم ينصب له الشبك: لم يذلل ولم يؤخذ ويطوع.

لَا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنْهَا وَهِيَ طَيِّبَةٌ
 نَفْسًا بِمَا سَوَّفَ يُنْجِيهَا وَتَتْرُكُ^(١)
 هَلَا سَأَلْتَ بَنِي الصَّيْدَاءِ كُلَّهُمْ
 بِأَيِّ حَبَلٍ جَوَارٍ كُنْتَ أَقْتَبِسُكَ^(٢)
 فَلَنْ يَقُولُوا بِحَبَلٍ وَأَمِنْ خَلْقٍ
 لَوْ كَانَ قَوْمُكَ فِي أَسْبَابِهِ هَلَكُوا^(٣)
 يَا حَارٍ لَا أُرْمِيَنَّ مِنْكُمْ بِدَاهِيَةٍ
 لَمْ يَلْقَهَا سُوقَةٌ قَبْلِي وَلَا مَلِكٌ^(٤)
 أُرِدُّ يَسَارًا وَلَا تَعْنَفَ عَلَيْهِ وَلَا
 تَمْعَكَ بِعَرَضِكَ إِنَّ الْغَادِرَ الْمَعَكُ^(٥)
 وَلَا تَكُونَنَّ كَأَقْوَامٍ عَلِمْتُهُمْ
 يَلُودُونَ مَا عِنْدَهُمْ حَتَّى إِذَا نَهَكُوا^(٦)
 تَعْلَمَنَّ! هَا لَعَمْرُ اللَّهِ، ذَا قَسَمًا
 فَأَقْدِرْ بِذَرْعِكَ وَأَنْظُرْ أَيْنَ تَنْسَلِكُ^(٧)

-
- (١) - تترك: أي لا تخرج أقصى سرعتها لثقتها بنفسها في أن الصقر لا يدركها.
 (٢) - بنو الصيда: قوم من بني أسد. الحبل: العهد واليثاق.
 (٣) - الواهن: الضعيف. الخلق: البالي. أسبابه: حباله.
 (٤) - يا حار: ترخيم يا حارث وهو الحارث بن ورقاء.
 (٥) - تمعك: تماطل. المعك: الماطل.
 (٦) - يلودون: يماطلون ويخلفون بوعودهم. نهكوا: شتموا.
 (٧) - تعلمن: أعلم. ها: للتنبيه. أقدر بذرعك: أي أقدر بخطوك. أين: تنسلك: أين تؤخذ.

ليأتينك مني مَنْطِقُ قَذَعُ
باقٍ كما دُنَسَ القُبْطِيَّةُ الودك^(١)

(١) - القذع: الشتم القبيح. القبطية: الثياب البيضاء. الودك: الدسم من اللحم والشحم.

هم خير حي من معد.

يمدح زهير في هذه القصيدة سنان بن أبي حارثة والدهرم
حيث نقتطف منها هذه الأبيات:

صحا القلب عن سلمى وقد كاذ لا يسئلو

وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل^(١)
لأرئجلن بالفجر ثم لأذأبن

إلى الليل إلا أن يعرجني طفلاً^(٢)
إلى معشر لم يورث اللؤم جدّهم

أصاغرهم وكل فحل له نجل^(٣)
إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم

طوال الرماح لا ضعاف ولا عزّل^(٤)
وإن يقتلوا فيشتفى بدمائهم

وكانوا قديماً من منايهم القتل^(٥)

(١) - التعانيق والثقل : موضعان .

(٢) - أذأب : أجد في السير . يعرجني : يحسني . كناية عن أن ناقته ستضع .

(٣) - أني مرتحل إلى اقوام يتوارثون المجد أباً عن جد ، فكلهم أنجال لجد كريم .

(٤) - فزعوا : أغاثوا المستصرحين . العزل : مفرد أعزل : الذي لا سلاح له .

(٥) - أي أنهم أشرف يفتخروا قاتلهم بقتلهم لأنه يشفي بدمائهم لثارات عندهم
لأنهم فرسان حرب وخصوصاً أن القتل عندهم أمنية من أمانهم .

إِذَا لَحِقَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ
 ضُرُّوسٌ تُهَرُّ النَّاسَ أَنْيَابُهَا عُضْلٌ^(١)
 تَجْذُهُمْ عَلَى مَا خَيَّلَتْ هُمْ إِزَاءَهَا
 وَإِنْ أَفْسَدَ الْمَالُ الْجَمَاعَاتُ وَالْأَزْلُ^(٢)
 يَحْشُونَهَا بِالْمُشْرِفِيَّةِ وَالْقَنَا
 وَفَتَيَانِ صِدْقٍ لَا ضِعَافٌ وَلَا نُكْلٌ^(٣)
 مَتَى يَشْتَجِرُ قَوْمٌ تَقِلَّ سَرَوَاتُهُمْ
 هُمْ يَتَنَّبَأُ فَهُمْ رَضَى وَهُمْ عَذْلٌ^(٤)
 هُمْ جَرَّدُوا أَحْكَامَ كُلِّ مُضِلَّةٍ
 مِنْ الْعُقْمِ لَا يُلْقَى لِأَمْثَالِهَا فَضْلٌ^(٥)
 بِعَزْمَةٍ مَأْمُورٍ مُطِيعٍ وَأَمِيرٍ
 مُطَاعٍ فَلَا يُلْقَى لِحَزْمِهِمْ مِثْلٌ^(٦)
 هُمْ خَيْرُ حَيٍّ مِنْ مَعَدٍّ عَلِمْتُهُمْ
 لَهُمْ نَائِلٌ فِي قَوْمِهِمْ وَلَهُمْ فَضْلٌ^(٧)

(١) - لحقت الحرب: اشتدت. العوان: المستمرة. الضروس: الشرسة. عضل: ناقة.

(٢) - خيلت: شبهت. الأزل: الذي يجبس المال ولا يرسل إلى المرعى.

(٣) - يحشونها: يهيجونها. حش النار: أوقدها. النكل: الجبناء. الواحد ناكل.

(٤) - يشتجر: يختلف. سروات وواحدة سري: السيد الشريف.

(٥) المصلحة من الضلال: المربكة والمعمية. العقم: انعدام الولادة لأن الحرب مهلكة.

(٦) - يريد أنهم ذوو حزم كلمتهم مجتمعة وسياساتهم صحيحة.

(٧) - لهم نائل: لهم عطاء. معد: جد غطفان.

فَرِحْتُ بِمَا خُبَرْتُ عَنْ سَيِّدَيْكُمْ
وَكُنَّا أَمْرَيْنِ كُلُّ أَمْرِهِمَا يَغْلُو^(١)
رَأَى اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ
فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَتَلَوُ^(٢)
تَدَارَكْتُمَا الْأَحْلَافَ قَدْ نُلَّ عَرْشُهَا
وَذَبِيانَ قَدْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النُّعْلُ^(٣)
وَإِنْ جِثَّتْهُمُ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بَيْتِهِمْ
تَجَالَسَ قَدْ يُشْفَى بِأَخْلَامِهَا الْجَهْلُ
وَإِنْ قَامَ فِيهِمْ حَامِلٌ قَالَ قَاعِدٌ
رَشَدْتُ فَلَا غُرْمَ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ^(٤)
وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَلَمَّا
تَوَارَتْهُمْ أَبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئُ إِلَّا وَشِيجَهُ
وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النُّخْلُ^(٥)

(١) - السيدان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف.

(٢) - أبلاهما خير البلاء: أحسن لهما الصنع.

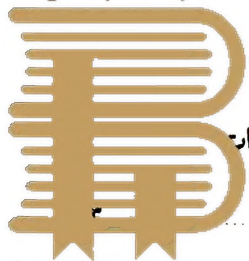
(٣) - تداركتما الأحلاف: حملتاهم الصلح. الأحلاف: أسد وغطفان وطيء.
نُلَّ: كسر وهدم. عرشها أراد به بناءها وبقاها. ذبيان قبيلة المدوحين. وأما
زلت بأقدامها النعل إشارة إلى عمل حصين بن ضمضم الذي أشعل الحرب
من جديد.

(٤) - رشدت: أي تصرفت بعقل.

(٥) - الوشيج: الملف في منبته. والواحدة وشيجة.

قائمة ببعض المصادر والمراجع .

- ١ - ابن قتيبة . الشعر والشعراء . تحقيق د . مفيد قميحة . بيروت
- ٢ - ابن رشيق . العمدة .
- ٣ - أبو الفرج الأصفهاني . الأغاني .
- ٤ - جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية . دار الهلال .
- ٥ - جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . دار العلم للملايين .
- ٦ - زهير بن أبي سلمى . الديوان . دار صادر - بيروت .
- ٧ - شوقي ضيف . في العصر الجاهلي .
- ٨ - شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في الشعر العربي .
- ٩ - طه حسين . في الأدب الجاهلي .
- ١٠ - طه حسين ، حديث الأربعاء . ج ١ . دار المعارف بمصر .
- ١١ - علي الجندي . تاريخ الأدب الجاهلي .
- ١٢ - عمر فروخ . تاريخ الأدب العربي . دار العلم للملايين .



فهرس المحتويات

shiabooks.net

mktba.net

- ١ - المقدمة ٢
- ٢ - الفصل الأول ويشمل:
 - أ - صفة شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ١٢
 - ب - الحياة الإجتماعية في العصر الجاهلي ٢٠
 - ج - الحياة الروحية في العصر الجاهلي ... ٢٣
 - د - الحياة العلمية والثقافية في العصر الجاهلي ٢٧
 - هـ - الحياة السياسية في العصر الجاهلي ٣١
- ٣ - الفصل الثاني ويشمل: زهير بن أبي سلمى ٣١
 - أ - نسبه - قبيلته - أحواله - علاقته بزواج أمه ٣١
 - ب - حياته الأدبية وشعره ٣٧
 - ج - آراء النقاد فيه ٤٠
- ٤ - الفصل الثالث: ويشمل اغراض شعره وأهمها: ٤٤
 - أ - الغزل ٥٠
 - ب - الوصف: الأطلال والرحلة والصيد ٦٣
 - ج - المدح ٧٦

٩٢	د - الرثاء ..
٩٦	هـ - الهجاء
١٠٠	و - الحكمة
١٠٥	ز - المعلقة
١٢٩ .	٥ - الخاتمة وتناول : النزعة الفنية في شعر زهير
١٣٧	٦ - المختارات
١٥٣	٧ - قائمة ببعض المصادر والمراجع